رواية

أُنوزِيم

نـورا حسين

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

لم تمر فعلة الملك خوفو بسلام، كانت بمثابة قربان لقوى الشر، لم يلبث أن رحل بعدها تاركًا مصر والعالم كله مظللاً بغيمةٍ سوداء ستمطر دماءً ويحل الغضب من كل جانب يوم أن تستيقظ قوى الظلام والدمار والحرب التي استدعاها دونما قصد، يوم أن رفع الشيطانة على عرش مصر وتوَّجها ملكةً عليه.

(حُنوت)، تلك الجارية التي وفدت ضمن قافلة نخاسين من بلاد الأمازيغ بشمال أفريقيا وكان اسمها قبل الملكي (تيزيرى) أي القمر باللغة الأمازيغية، اشتراها الوزير (حم ايونو) هديةً لملكه وابن عمه الملك (خوفو)، ثم استطاعت أن تقتنص قلب خوفو المعظم فتزوجها وأنجب منها ابنه الثالث (خفرع) وابن (حنوت) الأول.

أشعلت تلك الزيجة نيران الغيرة في قلب زوجته الملكية الأولى (مريت ات اس) التي عاشت مكلومةً بعد وفاة ابنها الأكبر (كاوعب) ولي عهد الملك، والذي مات في حياة أبيه ميتةً غامضة، ثم وفاة ابنها الثاني (جدف رع) بنفس الغموض، عاشت على أمل أن يؤول العرش لابنها الأصغر (جدف حور) عوضًا عن الأول والثاني.

كان الملك يحب (حنوت)، وزاد حبه لها بعدما أنجبت

له الذكر الذي طمعت أن يكون هو الملك القادم، وعدها خوفو العظيم أن يؤول له الحكم بعد أخيه الأكبر مباشرةً، متخطيا القواعد الملكية للمرة الثانية بعد تلك المرة التي وقف فيها في وجه أمه الملكة (حتب حرس) رافعًا جاريته (تيزيرى) لدرجة الزوجة الملكية ملقبًا إياها باسمها الفرعوني الجديد.

كان لابد أن يتولى العرش أكبر أبنائه (كاوعب)، الذي استيقظوا ذات يومٍ على خبر موته مخنوقًا بيدٍ شيطانية، فشل كبار الأطباء وحتى الكهنة آنذاك في كشفها، واستسلموا جميعًا لكونها يد قوى الشر، الإله (أبيب)، حينها انقلب قصر الملك واستدعوا كبار كهنة مصر أجمعين، أقاموا الطقوس وقدموا القرابين وصلّوا ورتلوا واستجاروا بـ(رع) و(أوزوريس) آلهة الخير أعداء (أبيب).

مات خوفو واعتلى (جدف رع) العرش عوضًا عن أخيه (كاوعب) منتزعًا إياه من يد (حنوت) وابنها طبقًا للترتيب الملك، وما هي إلا أشهر قليلة حتى مات هو الآخر بنفس الطريقة، فآمن كل الكهنة بل وعامة الشعب أن لعنة (أبيب) طالت أبناء الملك خوفو.

وأخيرًا صعد (خفرع) على عرش مصر وتحققت رغبة (حنوت)، ومرت أشهر ولم يُصِب الملك الجديد أي

سوء، هنا استيقظ شيطان الملكة الأولى (مريت ات اس) وتيقنت أن قوى الشر التي انتزعت روح ابنها الأول ثم أخيه ما هو إلا سحر (حنوت) الأسود.

ثم راحت تتذكر ذهابها المنتظم للمعابد الخاصة بها ولقاءاتها المتتالية مع السحرة وقربها الشديد من (حم ايونو) ابن عم الملك خوفو والذي كان عالمًا كبيرًا بأمور السحر.

قررت الملكة (مريت ات اس) أن تحارب السحر بالسحر، فهي تطمح لاستعادة العرش لصالح آخر أبنائها (جدف حور) من يد مغتصبيه وعلى رأسهم الحية (حنوت).

فنشرت جواسيسها في كامل القصر وحتى في غرفة الملكة (حنوت) شخصيًا، ودارت حرب السحر الأسود وتسخير (أبيب) وأعوانه تارةً لهذة وتارة لتلك، والانتصار يكون لمُقدمة القرابين الأعظم، حتى قرر (جدف حور) أن يضع حدًا لهذا الصراع الذي كان يبغضه لحبه لأخيه (خفرع) والذي وجده ملكًا عظيمًا يستحق العرش بجدارة لصالح مصر، وأقدم على أخطر خطوة قد يتصورها أي عقل بشري.

قدم نفسه قربانًا لـ(أبيب) ليقي عائلته شره ويُنهي

النزاع، سلّم له روحه ليكون جندي من جنوده في السماء يستخدمه كيف يشاء في أي مكان وزمان، على أن يترك عائلته تحيا في سلامٍ ويعم الحب بينهم.

قتل (جدف حور) نفسه، وصُدم الملك (خفرع) حينما أيقظه (حم ايونو) فجرًا ليبلغه بهذا المصاب الجلل.

قال له الكهنة وقتها أن لعنة (أبيب) أصابته بالجنون قبل انتحاره بأيام، كما أخبرهم كبير حراسه أن الأمير (جدف حور) ذهب ليلاً لمعبده وأقام طقوس السحر الأسود وأمر كاهن المعبد بنحت رمز الإله (أبيب) على ذراعه، الذي هو أفعى كبيرة ملتفة حول نفسها عدة مرات ترضيةً للإله ليتجسد.

ثم أمرنا جميعًا بتركه وحيدًا بعد إشعال البخور المفضل لـ (أبيب) داخل خيمةٍ نصبناها له بأمره، مكث فيها ثم دقائق واشتعلت بعدها الخيمة بالنيران، أسرعنا للداخل فوجدناه ساجدًا لأفعى أبيب يتلو تعويذة تسليم الروح، ثم اهتزت الأرض وهاجت عاصفةٌ ترابية قوية كانت كالإعصار الصغير أحاطت به ولم تهدأ إلا وهو صريعٌ بين أحضانها.

على الجانب الآخر، فور وصول الخبر للملكة (مريت)

وقبل أن يباغتها الانهيار، حملت كل ما بقلبها من مرار، وخرجت بثباتٍ تنتظر وصول جثمان ابنها على بوابة القصر، وما إن وصل محمولاً على نقالةٍ فس مشهدٍ مهيبٍ لم تقوَ على رؤيته، أمرت خادمتها المخلصة (سيا) أن تذهب بنفسها على الفور لتستدعي الكاهن (سم) المسؤول عن طقس فتح الفم دون أن يراهما أي إنسان ومعه كبير سحرة معبدها، ذهبت سرًا وأحضرته على الفور، دقائق في غرفة الملكة خرج منها وقد علم جيدًا ماذا عليه أن يفعل.

بعد يومين بدأت مراسم الدفن.

• • •

وقف الأشهاد كأن على رؤوسهم الطير من شكل الجثمان الذي أسود كقطعة فحم وتخشب، لم يكن كهيئة الجثث العادية وتلك العينان المفتوحتان بشدة المكسوتان بالزرقة لم تكن عينًا ميتة، كانت شديدة التركيز تنظر بقوة للسماء، كانت لامعة براقة.

بدأت المراسم في حضور الملك وزوجاته وكل أهل المتوفي إلا الملكة الأم، بدأ كاهن الغُسل بسكب ماء النيل المقدس على الجثمان وسط تراتيل وصلوات وتعويذات، ثم بدأت مراحل التحنيط وتعويذاتها

الخاصة، ثم نُزعت أظافر القدمين واليدين ورتلوا عليهم تعويذةً ليستعيدهم الميت في حياته الأخرى، وأخيرًا مسح الكاهن على رأسه مسحًا ختاميًا بعدد من اللفائف المشبعة بالزيت، ثم وضعوا الجثمان في تابوته وبدأت الطقوس الجنائزية.

حمل الكهنة التابوت المغطى بالزهور وصندوق الأحشاء وتقدموا بهم وسط قرع الدفوف والرقص الجنائزي في مسيرة حاشدة مهيبة، ليعبروا به النيل الذي اصطفت على ضفته المراكب لنقل أهل المتوفى، النساء في مركب والذكور في مركب، والتابوت في مركب، أما المركب الرابع فللأصدقاء، وتحمِل بقية القوارب المتاع الجنائزي.

مواكب القوارب هو تقليد لرحلة الحج التي كان يُفترض أن يقوم بها الميت عبر النيل إلى الأماكن المقدسة في أبيدوس وبوتو.

وصلت القوارب للبر الغربي حيث الجبانات، وبدأت مراسم التشييع.

سار الرجال في المقدمة تتبعهم النساء، ثم أشعل الكهنة البخور أمام المومياء ورتلوا تراتيل حزينة، ثم توقف الموكب بالقرب من المقبرة أمام مكان يسمى

(البيت الذهبي) والذي يُقام فيه طقس فتح الفم والعينين والأذنين.

تقدم الكاهن (سم) المسؤول عن هذا الطقس مرتديًا جلد الفهد المميز، وأمرهم بإدخال التابوت لتطهيره، ثم قام بوضعه على قاعدة رملية موجهًا وجهه للجنوب، ثم بدأ بفتح فم الأمير وأذنيه بآلاتٍ مختلفة مرددًا تعويذة:

«أنا أفتح فمك كي تتكلم، وأفتح عينيك كي ترى رع، وأفتح أذنيك كي تسمع تبجيلك، ثم تمشي على رجليك كي تدفع عنك الأعداء».

والعديد من الطقوس الأخرى ثم قام بتبخير التابوت ببخور ذو طبيعة سحرية كي يحصل تمثال المتوفى على تأثير جسده، ثم أمرهم بذبح بقرة في الخارج وتوزيع لحومها على الحضور كنوع من الكفارة وهو أحد الطقوس المهمة.

وفي النهاية طقس «كسر الفخار» وهو ضروري حسب ما جاء في الأسطورة ليمنع عودة روح المتوفى لدار الأحياء، والذي لم يقم به الكاهن وعوضًا عنه تلى تعويذة من شأنها جعل الروح تظل حرة في السماء ولا تنتقل كليًا للعالم الآخر تاركًا بوابة عبورٍ تتيح للروح

العودة لدار الأحياء في أي زمان ولكن في نفس المكان.

انتبه له أحد صغار الكهنة وأمره أن يكف عن إلقاء التعويذة فهي خرقٌ لأصول دفن الموتى، وستتسبب بالأذى للأحياء وستتوه الروح وتضل طريقها في العالم الآخر.

نهره الكاهن (سم) وأمره بغلظه أن يصمت فهو ينفذ أوامر الملكة (مريت)، ولكن الكاهن الصغير فضحته نظرات عينيه التي توعدت بكشف الأمر، تجاهلها مؤقتًا الكاهن (سم) وأمر رجاله بنقل الجثمان من التابوت، فانتفض الكاهن الصغير مرة أخرى قائلاً:

- هل ستسرق الجثة أيضًا؟

رد (سم) بهدوء أنها إحدى أوامر الملكة أن نُحضر لها جسد الأمير، فسأله الكاهن الصغير:

- ومن سنضع بدلاً منه في التابوت؟ سيحمله الكهنة وسيعلمون أنه فارغ.

استدار له (سم) بعينين تملأهما الخيانة والشر قائلاً:

- خمّن! أنت من سيُحمل بدلاً منه؟

وقبل أن ينطق الكاهن الصغير وقد فطن لمقصده، هوى فأسٌ على رأسه من الخلف بيد أحد معاوني

الكاهن الكبير.

وبسرعةٍ وضعوه عوضًا عن الأمير وأخذوا الجثمان في تابوت آخر، وسلموا التابوت الأول للكهنة وأنزلوه المقبرة، في حين انطلق الجثمان الحقيقي في الخفاء وبعيدًا عن أنظار الجميع لمعبد الملكة (مريت) وتمت الخديعة.

• • •

كانت هناك في انتظار الجثمان برفقة كهنتها وسحرتها يعُدون العدة، أنذرت السماء بهطول الأمطار فقال كبير سحرتها (حبت توب) أنها جنود (رع) تحاول إفساد الأمر لأن الأمير (جدف حور) أصبح شرًا من شرور (أبيب) وتابعًا له، فأمرهم بنصب خيمة وتبخيرها ببخورٍ سحري لجذب أعوان (أبيب).

وما إن وصل التابوت حتى بدأت مراسم تعويذة عودة الروح، وُضِع التابوت داخل الخيمة، رسم حولها دائرة كبيرة، حول الدائرة تناثرت القرابين، وقبل اكتمال البدر بدقائق وأمام تمثال الإله (أبيب) ألقى كبير السحرة التعويذة:

«قم، قم أيها الملك بأمر الإله أبيب

قم وقتما استُدعيت، فأنت حي بأمر الإله العظيم في

كل زمان

قم وتجسَّد، ستجد جسدك الذي خُلق لك ينتظرك وقتما آثرت العودة، سيناديك

قم وقدِّم قرابينك للتودد لـ(أبيب) حتى يمنحك السلطان والخلود مرة أخرى

قم بحق الأفعى التي بروحها ستفديك، وبحق الدم الذي سيغذيك، وعيون الجن التي ستحميك»

ثم سُكب على جثمانه ماءٌ مسحور ودُفن أسفل هذا المعبد في البر الشرقي في مقبرة جهزتها الملكة خلال اليومين الماضيين.

ناول كبير السحرة الملكة الأم قارورة من الماء المسحور وخاتم ممسوس ذو حجر أسود كبير يفتح لمرتديه بوابات العالم الآخر استقبالاً لروح الأمير.

التفت لها قائلاً:

- الليلة اكتمل البدر الأول وسلمنا الجسد للإله، لابد من تحضير القرابين الموصوفة في برديات تعاويذ عودة الروح ونحرها وإيجاد جسد الوسيط الحي قبل اكتمال البدر الثاني وإلا سيغضب الإله ولن يرد روحه.

• • •

أمرتهم الملكة بالبحث عن الجسد الحي، ذلك الوسيط الذي سيحوي روح الأمير والقرابين التي ستسترضي الإله «الموشومة بأفعى أبيب والموصومة في الوجه وصاحبة عيون الجن» كما تقول برديات السحر القديمة.

أخذت الملكة المكلومة تعد الأيام والليالي في انتظار اليوم الموعود، كانت الأيام تمر ثقيلةً كأنها أعوام وكانت تشعر أنها تكبر في كل ليلة مئة عام، حتى حل موعد اكتمال البدر الثاني.

ليلتها اجتمعت مع كهنتها وسحرتها في معبدها أمام الهرم الأكبر، أمرهم كبير السحرة بنصب الخيمة قبل دخول الحراس حاملين صندوقًا حديديًا بداخله رجل وامرأتان، قال لها (حبت توب) أنهم القرابين المنتظرة.

تلك الموشومة فتاة شابة عصت أبيب فوشمها بأفعاه، والثاني أصبح من أنصار (رع) وكفر بـ(أبيب) فوصمه في خده الأيمن بوصمة العُصاة، أما الثالثة فهي من سحرة الجنوب ذات العينين الزرقاوين تميل إحداهما للبياض، تتلبس عيناها عيون الجن الكارهين لـ(أبيب)، «سيسعد الإله بنحرنا لهم ويمُن علينا بروح

الأمير».

بقي الجسد الحي، الوسيط الذي ستتنزل فيه الروح وتعبر من خلاله من عالمها لعالمنا مرةً أخرى، شابٌ وفد مؤخرًا من بلادٍ مجاورة، أتى هاربًا من بطش ملكه الذي قضى على عائلته وأحرق قلبه عليهم، فعزم على الانتقام منه، أتى طواعيةً ولا يدري ما الذي ساقه للمعبد طالبًا المدد للانتقام حتى لو كلفه ذلك حياته، أرسله (أبيب) كما قال لها كبير السحرة، وعدوه أنه لو ضحى بجسده فسيضمنون له جوازًا مكرمًا في سماء أبيب، وغضبًا سينال قاتل عائلته.

دخل الشاب مسجى على نقالة خشبية في حالة تسليمٍ كامل من باب المعبد، مستقرّ داخل الخيمة، وما أن أعد كبير السحرة العدة حتى بدأ في ترتيل التعاويذ على جسد الشاب.

وأمام حفرة النار عَلا صوته قائلاً:

- إلهي الذي يعيش في الظلام، يغضب فتفزع الرياح، يتجسد فتهتز الأرض، أبيب هو أفعى السماء، الغاضب في قلبه، الحي في كل الأزمنة، يأكل أحشاء العصاة، عندما يأتون تمتلئ أجسادهم بالسحر، ويوشمون بالعلامات، تمص

دماءهم كي ترضى.

بدأت السماء تغيم والرياح تزوم، زادت النيران التي أمامه، التفت لجسد الشاب قائلاً:

- هنا يا إلهَنا، جنديك الذي اخترت بجسده الحي، سينحر لك القرابين، قم، قم أيها الجسد بأمر أبيب العظيم وارتدِ خاتم القوة و ...

وبينما هو يرتل التعويذة قاطعه دخول الملكة (حنوت) المحاطة بجنودها وكهنتها وسحرتها، آمرةً إياهم بإيقاف تلك الجلسة في الحال وتحرير القرابين، ثم دارت المعركة.

هجم الحراس على الحراس والسحرة على السحرة والجواري على الجواري، كانت معركةً شرسة انتصر فيها أتباع (حنوت) ولم يُبقوا من أعداهم أحدًا.

تسللت الملكة (مريت ات اس) في غفلةٍ من الجميع، من قلب المعمعة، داخل الخيمة بعدما أحرق سحرة (حنوت) عينا (حبت توب) وسقط يتلوى من الألم، نظرت للجسد الذي ارتفع عن الأرض وما إن أيقنت الهزيمة بصراخات رجالها في الخارج حتى بدأت بإلقاء تعويذةٍ أخرى.

«قم أيها الجسد لتجد القرابين وتسخرها للإله، هنا

في نفس المكان في زمان غير الزمان، سيقودك أبيب إلينا، رتل التعويذة وأعِد الكَرَّة، سنجدك وستجدنا».

وقبل أن تنتهي إذا بأصابع قوية كالحديد تنغرس في رقبتها، للمرة الثانية تظهر (حنوت) في الوقت القريب من المناسب.

قاومت (مريت) بحجم طاقة الكراهية التي بداخلها لها، وصدتها (حنوت) بحجم طاقة حبها لابنها، فانتصرت (حنوت) وانتزعت الخاتم من إصبع (مريت) ضامنةً بذلك فشل كل محاولاتها في إنجاح أي تعويذة.

أسرعت خارج الخيمة تاركةً الأخرى صريعةً فوق جسد الشاب الذي هوى على الأرض صريعًا مثلها، وألقت الخاتم بكل قوتها بعيدًا فاستقر بجوار هرم خوفو ثم، اكتشفت بعدها بلحظات أنها اقترفت خطأً عظيمًا.

هاجت السماء، وضربت الأرض التي يقفون عليها صواعق البرق فأحرقت من أحرقت، تسارعت الرياح وعلت أصوات زعابيب أبيب في كل جانب كأنها صراخات المعذبين في الجحيم.

جحظت عيون الجميع ووقفوا مشدوهين متسمرين وهم يشاهدون اقتراب إعصارٍ شديد القوة والضخامة،

تجلى من خلف الهرم الأكبر، اقترب منهم بسرعة البرق، داهمهم جميعًا منتزعًا أرواحهم الروح تلو الأخرى.

في الصباح وجدوا الملكة (حنوت) وجميع السحرة والكهنة والحراس صرعى، كما وجدوا ملابس الملكة (مريت) ومجوهراتها التي كانت ترتديها ولم يجدوا جثمنها ولا جثامين سحرتها وأعوانها، فتناثرت الأقاويل عن أن ابنها انتقم لها بما له من سلطان عند أبيب ورفعها معه للسماء، وآخرين قالوا إن (رع) هو من خسف بهم الأرض نصرًا لخادمته (حنوت)، ولكن اتفقت الأغلبية على أن الملكة (مريت ات اس) حيةٌ في مكانٍ ما بين عالم الأحياء والأموات تتربص العودة، ويلمع ضوء خاتمها السحري في أشهر الربيع لحظة اكتمال البدر بجوار معبدها.

• • •

[أبريل 1990]

عاش الملك خفرع مع زوجاته وأنجب الكثير من الأبناء وحقق العديد من الإنجازات وشيد الهرم الثاني، وما زالت اللعنة نائمة تنتظر من يوقظها، في نفس المكان، في أي زمان، فـ(أبيب) لا يهدأ غضبه، والروح تصر على الرجوع، وقلب الأم المكلوم ما زال ينبض، وخاتم العودة يلمع حجره بين الهرمين مع كل استدارة قمر.

أنهى (مصطفى) قراءة الفقرة الأخيرة من كتاب (لعنة أبيب) بصوتٍ عالٍ وهو يتنفس الصعداء، فهو لا يقرأ وحسب ولكنه يتعمق ويتغلغل بكل روحه وخياله في أحداث وتفاصيل الرواية التي يقرأها كأنه بطلها أو كأنه معهم، هو بالفعل مهووس بالقراءة، خاصةً لو تعلق الأمر بالأساطير واللعنات فهو مقتنع تمام الاقتناع بما يسمى لعنة الفراعنة.

قد لا يكون هذا مستغربًا بقوة إذا علمنا أنه شابٌ تركي الأصل يتحدث العربية بإتقان، فأمه مصرية، يدرس في عامه الأخير بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة، توفى والديه في حادث سيارة العام الماضي، انهار وقتها تمامًا وانقطع عن الدراسة وأصبح شديد

الانطوائية فرسب في ذلك العام، تبدلت أحواله وصار كئيبًا غريبًا ومُستغربًا، كره إسطنبول تلك البقعة التي اختطف فيها الموت أعز أحبابه، فآثر البقاء في مصر نهائيًا، لم يتبقَ له سوى أخيه الأكبر المستقر في أنقرة مع زوجته وأولاده.

اختار حي الهرم ليسكن فيه، بيتٌ قديم من طابق واحد بعد الأرضي، قريب من الأهرامات عِشقه التي يقضي في رحابها عطلة نهاية كل أسبوع بمفرده.

دخل عليه (مجدي) زميله في السكن ضاحكًا يقول:

- ألا تمل من قصص الفراعنة تلك يا منكورع، فأنا أعيش معك منذ عامٍ تقريبًا لم أسمع فيه صوتك إلا وأنت تقرأ تلك الكتب، أُراهن أنك حفظتها عن ظهر قلب.

رد عليه مصطفى بعربيته المضحكة وقتما شاء وبخفة ظلٍ متحفِظة متعمدة:

- جاهلون، ستعيش وتموت جاهلون، ضحلون.

تعالت ضحكات مجدي أكثر:

- تركت لك العمق فأنا لا أجيد السباحة، ولكن انتبه فالامتحانات تأتي سريعًا ولم يتبقَ الكثير

لإضاعته.

رد عليه ناهضًا يجمع بعض أدوات الرسم ولوحةً للأهرامات غير مكتملة قائلاً:

- ما زال أمامي ستون يومًا كافية لكل هذه الثرّهات.

ضحك مجدي ثم أمسك بذات الكتاب الذي ألقاه مصطفى للتو فوق كومة الكتب الأخرى قائلاً:

- ثُرّهات؟! ما علينا، لن ألومك على شيءٍ لأنك فنان، أما أنا فطالب في كلية التجارة رجل عملي لا أمُت لرهف المشاعر بصلة، أرني ما تقرأ. ما هذا؟! لعنة أبيب؟ كفاك لعناتٍ يا أخي فتلك الأمور لا تُحمل بمحمل الهزل.

التفت له مصطفى بنظرةٍ ونبرةٍ ساخرة:

- كلها أساطير يا صديقي.

قال له مجدي بجدية:

- لا ليست أساطير، تلك اللعنات حقيقة ويحذر التفوه بها، أنا أعلم منك بأمورها، فقد عشت أنا وسلسال عائلتي بجوارهم في الأقصر لعقود من الزمن رأينا فيها وسمعنا أهوالاً.

ثم أخذ يقلب في صفحاته وقد اعتلت ملامح وجهه تعابير واجمة:

- من أين حصلت على هذا الكتاب؟

نظر مصطفى للكتاب بلا مبالاة:

- وجدته في إحدى المكتبات القديمة في نزلة السمان، لماذا؟

تركه مجدي من يده وقد ارتاب منه:

- لأنه قديم للغاية، كسى التراب أوراقه وغلفتها الصُفرة، وبدون اسم كاتب، هذا غريب!

لم يهتم مصطفى لتلك الملاحظة أو لم ينتبه أو لم يرغب في الانتباه حتى لا يعطي للأمر أهمية، أشاح مجدي بنظره عن الكتاب المريب وقد شعر بالضيق منه قائلاً:

- هل ستخرج؟

أومأ مصطفى برأسه:

- نعم، لأكمل لوحتي قبل المغيب.

- أنا أيضًا مضطر للسفر اليوم فأخي مريض في البلد ولابد من معاودته، انتبه لنفسك فالطقس

سيء والأفضل ألا تخرج إذا كان الأمر يحتمل التأجيل.

رد مصطفى غير عابئٍ بعد لحظات من الوجوم:

- لا يجب أن يذهب اليوم سدى.

رحل مجدي أولاً ثم مصطفى الذي تغيرت تعبيرات وجهه وحل العبوس محل الابتسامة.

• • •

كانت ليلة من الليالي الخمسين المحملة بأطنان الأتربة الصفراء والرياح تعصف بسماء القاهرة ككل عام في فصل الربيع، الجو حار وجاف، تكسو السماء حمرة كئيبة، الشوارع خالية إلا من بعض الأشباح.

مصطفى ميراز الشاب العشريني التركي اليافع، زادت حمرة بشرته البيضاء من شدة صهد هذا الجو الذي اعتاده بعد أربع سنوات، يبتسم الآن ابتسامة خفيفة، لقد تذكر أول ربيع له في مصر وأول لقاء جمعه بتلك الرياح الوحشية، يومها اعتقد أن الجحيم قد حل، حسنًا هو الآن بخير، تلك فقط رياح الخماسين.

عاد الوجوم يفترس ملامحه الساحرة، ويحتل الحزن

عينيه العسليتين العميقتين على ذكر مجدي لأخيه.

مصطفى أيضًا يفتقد أخيه الأكبر (يحيى) الذي لم يزره ولم يحادثه إلا مرة واحدة بعد وفاة والديهما، فقط يرسل له المال بانتظام من أجل تعليمه ومعيشته، لكنه يفتقده ويشعر بالوحدة بدونه، حوله الأصدقاء لكنه يشتاق لأخيه الوحيد المتبقي له في تلك الدنيا.

وزنه الخفيف جعل الرياح تقلبه ذات اليمين وذات الشمال معرقلةً سيره، هو حقًا لا يدري ما الذي دفعه للخروج اليوم، بالضبط مثل الكثير من القرارات التي يأخذها دونما أي سبب منطقي، في الواقع هو مرتبك منذ حادث والديه الأليم وخسارته لأمه التي يعشقها ولن يعشق أحدًا سواها، لا يمر يومٌ بلا كوابيس، أصبح منعزلاً وانطوائيًا، أصبح شديد التعلق بالكتب التي تأخذه لعوالم أبعد من واقعه المرير، يعيش بها، يذوب فيها لتملأ فراغ نفسه وروحه.

بعد دقائق من السير غير اليسير وصل فتانا لبؤرته المفضلة أمام بقايا المعبد الجنائزي بجوار الهرم الأكبر، وقف أمامه منبهرًا كأول مرةٍ رآه، ثبّت حامل اللوحات بصعوبة مثلما ثبّت اللوحة عليه بصعوبة أكبر، هو حقًا يتساءل؛ أي نوعٍ من العقاب هذا الذي يتفنن في أساليبه لتعذيب نفسه؟

وما إن شرع في تجهيز ألوانه وأدواته حتى صارت الرؤية من حوله ضبابية، وبدأت تلك الأصوات تحتشد في رأسه كالمعتاد، صراخات، أنّات، استغاثات، فهو يعاني من تلك الحالة منذ عام، أي منذ حادث والديه، ولم يشتكِ لأحدٍ ولم يخبر حتى أخاه.

زامت الرياح أكثر وتعذرت الرؤية أكثر فأكثر، وفجأة هبت عاصفة ترابية قوية اقتلعت حامل اللوحة واللوحة بل ومصطفى نفسه من على الأرض، عصفت بهم وفرقتهم كلّ في اتجاه.

وما هي إلا دقائق وهطلت الأمطار بعدها كالسيل وأظلمت الدنيا كأنما انتصف الليل، فأسرع محاولاً النهوض والصمود أمام تلك العاصفة ليستجمع نفسه وأغراضه.

تَلّفت حوله لعله يجد مكانًا يختبىء فيه حتى تهدأ تلك الأمطار الغزيرة، فلم يجد سوى خيمة مزينة بنقوشات غريبة تبدو كنقوشات هيروغليفية بجوار حفرة مركبة الشمس الملاصقة لهرم خوفو.

حدّث نفسه أن تلك الخيمة غريبة فهي لم تكن هنا الأيام الماضية بل لم تكن ظاهرة منذ قليل أو لعل الأتربة كانت تحجبها! والأغرب ثباتها كالصخرة في

وجه تلك الرياح العاتية.

ركض نحوها بلا تردد، وما إن اقترب منها حتى توجس خيفة من رائحة هذا البخور القوي العجيب المنبعث منها، وهذا الصوت المخيف الذي يشق سمعه بترنيمة لا يفقهها رغم جَلبة الرياح والأمطار، هو الآن متردد، أي خطوةٍ عليه أن يخطوها؟

لم يفكر كثيرًا فالجو يزداد سوءًا وهو الآن مبتل تمامًا، صَفق بيديه منذرًا من بالداخل بقدومه مناديًا بصوت مرتعش:

- يا أهل الخيمة، هل لكم أن تسمحوا لي بالدخول رجاءً؟

ساد الصمت بداخلها، فأعاد النداء مرة أخرى، ثم بعد ثوان أزيح له غطاء باب الخيمة بيدٍ من الداخل لم يرَ صاحبها، كأنها تأذن له بالدخول.

دخل على حذر، على عجلٍ معتذرًا عن مقاطعة صاحب الخيمة عن أي ما كان يفعله وما قطع جملته إلا منظر هذا العجوز ذو العينين البيضاوين الجاحظتين، ينظر نحوه وهو جالس أمام دائرة نار، يُلقي فيها البخور مرارًا كي تفُوح رائحته بقوة من جديد، حاول التراجع نحو باب الخيمة الذي انسدل غطاءه من تلقاء

نفسه للتو.

لم يكن هناك سواه وذلك الساحر، لم تستطع أنفاسه ملاحقة ضربات قلبه المتسارعة من الرعب، فسقط مغشيًا عليه.

• • •

وبعد وقتٍ لم يدرِ أطويلٌ كان أم قصير استفاق مصطفى ممددًا على أرض تلك الخيمة غير مستجمعٍ لكافة حواسه وإدراكه بعد، ليجد نفسه تلك المرة أمام سيدة جميلة بيضاء سوداء العينين بشرطة كحلٍ طويلة، متوسطة القامة والقوام في منتصف الأربعينيات من عمرها تقريبًا، تبدو من هيأتها أنها سليلة طبقة أرستقراطية أو ملكية، ترتدي ثوبًا أسودًا طويلاً مفتوحًا من الصدر قليلاً، يلتف حول عنقها عقد ذهبي مُتقن الصنع، كانت واقفة على باب الخيمة بينما هو ملقىً على الأرض، لم تكن مبتلة رغم أن الأمطار ما زالت تهطل بقوة في الخارج وما زال صوتها يدوي كالطلقات تخترق كالسهام مسام الأرض.

اقتربت منه قليلاً ونظرت إليه نظرة من مستوى أعلى قليلاً، أشعرته بفرق المسافة الرأسية بينهما، تملكه إحساس تمنى لو أنه كان خاطئًا، ولكن للأسف، بعدما

استفاق كليًا أدرك تمامًا أنه مدفون في حفرة ليست بعميقة، مطابقة لطوله وعرضه، كأنما صنعت خصيصًا من أجله.

حاول النهوض أكثر من مرة، لكن ثمة قوىً عجيبة تجذبه بقوة، تقيده، وتشل أطرافه، حاول أن يطلق صرخة استغاثة فانحشر صوته في جوفه.

رمقته المرأة بنظرة قاسية متعالية، رافعةً حاجبها الأيمن بكبرياء وتوعد، وقالت له بصوت مثقول:

ـ أتستدعينا ثم تجزع؟

بدأ يشعر باختناق الأسر، تعرق بشدة وهو يتلوى منتفضًا، مصارعًا الشلل الكلي الذي أصابه، يحاول التخلص من تلك القيود الخفية ولا يقوَ، نظر إليها بعينين مرتعشتين فرت منهما الدموع من اليأس.

راقبته قليلاً ثم أشاحت بنظرها عنه نحو الساحر الطاعن في السن متسائلةً:

ـ متى أُلقى ترتيلة عودة الروح يا حبت توب؟

رد العجوز الأغبر:

ـ من قبل المغيب مولاتي مريت ات اس.

اقتربت من باب الخيمة مزيحة غطاءها، مقلبة

عينيها في السماء، ثم أخذت تتمتم قائلةً:

- سوف يكتمل البدر بعد قليل، سوف يتحقق أملي بعد قليل، هنا، في نفس المكان، في زمانٍ غير الزمان.

ثم أسدلت الغطاء وعادت مقتربةً من مصطفى، ناظرةً إليه بحنوٍ بعض الشيء وهي تقول:

- أتعلم يا حبت توب أنه يشبه أميري كثيرًا.

رد الساحر الدميم بصوته الأجش، مقاطعًا تأملها القصير:

- مولاتي، يجب أن نلقي التعويذة قبل اكتمال البدر.

استفاقت المرأة مستعيدةً كبرياءها الطاغي، وابتعدت عنه نحو حفرة النار، جلست على ركبتيها، ثم ألقت المزيد والمزيد من البخور وهي تلقي تراتيل تبدو حزينة بلغة غير مفهومة، ثم بدأت الرياح تعود من جديد في الخارج بهدوء ثم اشتدت شيئًا فشيئًا، اشتعلت النار في الحفرة من تلقاء نفسها وصارت تعلو وتزيد أكثر فأكثر حتى كادت أن تحرق سقف الخيمة، ثم هبت رياح قوية جعلت شعرها يسبح في الهواء ويزيد طوله حتى غطى قبر مصطفى الذي رآه يسبح

فوقه كأنه أرواح الشياطين.

ثم علا صوتها بلغة عربية ونبرة شديدة مبتهلة:

- إلهي الذي يعيش في الظلام، يغضب فتفزع الرياح، يتجسد فتهتز الأرض، أبيب هو أفعى السماء، الغاضب في قلبه، الحي في كل الأزمنة، يأكل أحشاء العصاة، عندما يأتون تمتلئ أجسادهم بالسحر، ويوشمون بالعلامات، هم قرابيننا إليك، تمص دماءهم كي ترضى...

ارتفع جسد الفتى عن الأرض محلقًا في الهواء وقد بدأ يميل لونه للسواد وما زالت الرياح تزوم داخل الخيمة وخارجها، اقتربت منه وفي يدها قارورة، أفرغت محتواها على كامل جسده وهي تقول:

- هنا، في ذات المكان، أعود في نفس الليلة يا إلهي بمشيئتك، أنتظر جندك الذي اخترت، وها قد حلت عطيتك، وملّكتني جسده ليسخر لك القرابين.

ثم أمرت الجسد قائلةً:

- تحرك أيها الجسد بأمر أبيب العظيم، وارتدي خاتم القوة، لتتجلى لك القرابين، حاملة الأفعى، والموصوم في خده الأيمن وصاحبة عيون الجن، أخضعهم لسيدك أبيب قبل اكتمال البدر القادم.

ثم ألبسته الخاتم المسحور ذو الفص الأسود الملعون وصرخت بنبرة أقوى وأقسى:

- اذهب وانتظر زلزلة أبيب سيد الظلام، وامنح جسدك لمولاك (جدف حور) العظيم، ليعود ملكًا على عرشه المسلوب، اخضع وإلا شتت روحك في برازخ العصاة وأحرقت جسدك للأبد.

تعالت شدة الرياح أكثر فأكثر من حولهم حتى تحولت لإعصار أطاح بكل شيء في الخيمة وامتلأت بالأتربة الصفراء العاتية حتى تعذرت رؤيته لكل ما حوله، ثم هوى جسده فجأه على الرمال، واهتزت الأرض من تحته بقوة، شعر من قسوة هذا الزلزال بجسده يتمزق، وأوصاله تتشتت، ثم غاب تمامًا عن الوعي.

• • •

تلك هي اللحظات الأولى لبزوغ فجر يومٍ جديد، الصفاء والنقاء يسبحان بين طبقات السماء، رائحة النعيم تفوح من بين ذرات الهواء، ملمس الراحة الدافئ يتحسس وجه فتانا، استيقظ كأنه لم ينم، كأنه كان في حلم، حلم عابر لم يطل، واجدًا نفسه في غرفته مستلقيًا على سريره، فأدرك أن ما راوده كان كابوسًا

كسابقيه.

نهض يجر قدميه، يقاوم هجمات النوم لعينيه، لم يستعد بعد كامل تركيزه، حك جلد رأسه، ولكن؟

أين شعره؟!!!

لا شيء فوق رأسه؟؟ نظر على الوسادة فوجد شعره كله متساقطًا عليها في مشهد مُهلكٍ للروح، شعره الناعم الكثيف متساقطٌ بأكمله؟ يا للهول! كيف ذلك؟ ماذا حدث؟

انتفض من هول المفاجأة، خرج من غرفته مذعورًا ينادي على شريكه في السكن (مجدي) بهستيريا، ولكن لا مجيب!

عامت الأرض تحت قدميه، الصدمة غير متوقعه، شعرُ مصطفى كان أغلى ما لديه، يحبه ويهتم به أكثر من أي شيء في شكله، كان دائم الاعتزاز بأنه ورث جماله من أمه التي كانت تملك شعرًا كثيفًا ناعمًا طويلاً، كان بمثابة تذكار منها له بعد رحيلها.

ألقى بنفسه على كرسي الصالون المذهب الصغير القديم في صالة الاستقبال، واحتضن رأسه الصلعاء بين راحتيه وبكى، نعم بكى على شعره، بالتأكيد سيغير ذلك من شكله، ولن يألف الشكل الجديد، وسيغترب

أكثر في نفسه، أكثر مما هو غريب.

وبعدما أدرك أن البكاء لن يفيد ولا للمفقود معيد، نهض مرة أخرى يحاول مواجهه شخصه الجديد، يتعرف إليه، يحادثه، يتقبله.

دخل الحمام وما زالت الدموع تعيق رؤيته جيدًا، فتح صنبور الماء وانهال على وجهه بالمياه الفاترة والصابون المعطر، شعر بشيء صلب في إصبعه، أزاح الماء جيدًا من على عينيه فوجد نفسه مرتديًا خاتمًا ذا حجر أسود كبيرا!! نظر إليه طويلاً في حالة سهاد واندهاش، من أين أتى هذا الخاتم الذي يشعر كأنما رأه من قبل؟؟ مرت ثوان طويلة لم يتذكر خلالها من أين حصل على ذلك الخاتم ولا متى؟

ولكن فجأه ومضت وضمة سريعة في خياله، عن الكابوس الذي راوده ليلة أمسِ بعدما فرغ من كتاب (لعنة أبيب) الأسطوري الذي قرأه عشرات المرات، الكتاب والكابوس استعرضا نفس الخاتم!!

فَزِع لا شك، نظر في المرآة، وثبت نظره فيها للحظات، ثم شهق شهقة عميقة مكتومة قوية أرجعته بسرعة للخلف مرتبكًا مرتعبًا فاصطدم بالحائط صدمة قوية.

ظل هكذا واقفًا يرتجف، أغمض عينية بشدة وفتحهما أكثر من مرة ظنًا منه أنه أصيب بالعمى، ولكنه يرى كل شيء من حوله، كل شيء، إلا انعكاسه في المرآة.

خارت قواه ولم تعد تقوى على حمله قدماه، نزل ببطء على الأرض جالسًا يحتضن جسده المرتعش، كالذي أصابته حمى، أو كالذي يُغشى عليه من الموت، احتضن جسده بقوة فهو يشعر بالبرد، تملكته تشنجات كهربائية، بدأ المكان كله في الاهتزاز بقوة، تشققت الحوائط وتفتت، انهال التراب الناعم من السقف على رأسه، حتى أعضاءه بدأ يفقدها، قدماه التي تلاشت وكفيه اللذان كانا يحتضناه، حتى وصل التفتت لوجهه، ذقنه، شفتاه، أنفه، ولم يتبقَ إلا عيناه، وكأنه تحول إلى عينين، كأنه صار عينان تسبحان ولا أثر لجسده.

• • •

[فبراير 1991]

صرخات قوية شقت منتصف الليل البارد، هرع أطباء النبطشية والممرضات ورجال الحراسة على إثرها متوجهين نحو مصدر الصوت، الطابق الثالث غرفة 103 ذات التصميم الخاص والفريد، صممت خصيصًا للحالات الخطرة، فزجاجها العاكس يسمح للأطباء بمراقبة المريض بالداخل في حين لا يستطع هو رؤية من بالخارج.

وصلوا في نفس اللحظة تقريبًا، تسمروا جميعًا أمام الحاجز الزجاجي تمامًا كالممرضة صاحبة الصرخة والإنذار، جاحظي العيون، لا يصدقون ما يرون.

لم يجرؤ أحد على الاقتراب، فقط اكتفى أحدهم من التأكد من غلق باب الغرفة الداخلي جيدًا وأن المريض لن يستطيع الخروج، تصلب الجميع أمام الحاجز الزجاجي يراقبون، استطاع الدكتور «ناير» بصعوبة استجماع قواه وصرخ آمرًا الممرضة أن تستدعي كبير الأطباء في الحال.

استجابت على الفور، ركضت متعثرةً بين سقوط ونهوض حتى وصلت للهاتف في صالة الاستقبال، أكثر من محاولة حتى رد الطرف الآخر، كانت الخادمة

ناعسة، استفاقت فَزِعة من صوت الممرضة المستغيثة المنهارة، وما إن تلقت الاستغاثة حتى نقلتها للدكتور مراد الأغا، الذي لم يعبأ كثيرًا بالنداء وأتى مع بزوغ شمس الصباح الجديد في موعده المعتاد تاركًا أطباءه غارقين في وحل الرعب، فلم يجدوا بديلاً له سوى الدكتور حاتم الرجل الثاني في المستشفى.

• • •

تعالت الأصوات صباحًا داخل مكتب كبير الأطباء ومدير مستشفى (دار النور) للصحة النفسية ومالكها د. مراد الأغا، تلك المشفى الخاص ذات الموقع المتميز والهادىء على طريق مصر إسكندرية الصحراوي، بعيدًا عن ضوضاء المدينة وطرقاتها، ذات الخدمة عالية الجودة والرفاهية.

فهي ليست مجرد مشفى بل تعد منتجعًا صحيًا لكثير من أبناء الطبقات الراقية للاستجمام والتخلص من الضغوط والاضطرابات النفسية العابرة والمستديمة لتمتعها بخصوصية كبيرة ونظم أمان وحراسة عالية، بها حديقة كبيرة وملاعب وصالة ألعاب رياضية وحمامات سباحة، فقط الأثرياء يمكنهم تلقي العلاج فيها أو بالأحرى الاستجمام فيها.

الارتباك والفوضى هما الحالتين المهيمنتين على المكان من أوله لآخره هذا الصباح.

• • •

فاحت رائحة عطر الأوركانزا في كامل الكوريدور من مدخل المشفى وصولاً لمكتب المدير، إنه العطرالمميز والمفضل للطبيبة الأكثر جاذبية وجمالاً، د. مريم مراد الأغا التي وصلت للتو.

تلك الشابة اليافعة التي لم تتجاوز النصف الثاني من ثلاثينياتها، بيضاء ذات شعر أسود متوسط الطول كقامتها، يسكن الغموض عينيها العسليتين الغائرتين، يُبرْوِزهما ويُبرزهما حاجبيها البنيين، هذا التكوين النادر كشخصيتها، فهي بين الجادين مرحة وبين المتساهلين جادة، وسط المعقدين مرنة ووسط المائعين صلبة، قد جعلها محبوبة بين الأطباء والمرضى على حدٍ سواء.

طرقت باب المدير الغاضب الذي لم يهدأ لرؤيتها بل زاد حنقه، ألقت التحية على الحضور الواجمة؛ د.نابر أخصائي جديد بالمشفى أتى بالمزامنة مع وصول الحالة محل النقاش منذ أسبوع تقريبًا، هو شاب في منتصف العشرينيات من عمره، طويل وممتلىء قليلاً، يرتدي نظارة طبية، والدكتور حاتم استشاري ورئيس

قسم أمراض الوهام، رجل في بداية الأربعينيات، وسيم وأنيق، نحيف بلا إفراط، شعره الأسود الكثيف وبعض الخصلات البيضاء المبعثرة زادت من هيبته ووقاره، ورئيسة قسم التمريض مدام وفاء سيدة خمسينية، متوسطة الطول والقامة، هادئة وبشوشة.

أجلست مريم نفسها على أحد كراسي الطاولة المستطيلة المخصصة للاجتماعات، تلك القاعة هي الأضخم والأفخم فقط وحصريًا لمدير المشفى، تحوي مكتبه الكبير ومكتبة مهولة تعج بكتب الطب النفسي والأبحاث، بالإضافة لتلك الطاولة ذات الإثني عشر كرسيًا والكماليات كالتلفاز وثلاجة صغيرة، كما أن شاشات مراقبة الأدوار مدمجة داخل غرفة سرية صغيرة وهي جزء من نفس القاعة، تضم سريرًا صغيرًا ودولابًا، يبيت فيها الدكتور مراد إذا استدعى الأمر، وبالطبع فإن أمر شاشات المراقبة المدمجة هذه تعد سرًا من أسرار غرفته الفريدة والتي لا يسمح لأحد بالاقتراب منها ولا حتى ابنته.

تُفتح بشيفرة خاصة، بابها عبارة عن تابلوه بالحجم الطبيعي لشخصه المتواضع.

استكمل د. مراد حديثه الغاضب قائلاً:

- لم أوافق من بداية الأمر على تبني تلك الحالة المجهولة وما يمكن أن تجره علينا من مسائلات، خاصةً وأننا لا نملك أي سجلات عنه أو معلومات تساعدنا في أي شيء وليس له أقارب أو أصدقاء يفيدوننا، لكنكم أصررتم وانجرفتم نحو المغامرة دون أدنى اعتبار لمكانتي ومستشفاي وسمعتها.

ناظرًا لابنته وكأنها المقصودة قبل غيرها، ثم وزع نظراته على الآخرين وثبّتها على حاتم الذي تحمس لحماسها لتلك الحالة.

حاولت د. مريم الاستفسار بشكل ودي امتصاصًا لغضب مديرها وأبيها الذي على ما يبدو يُحملها نتيجة ما حدث والذي لا تعلم عنه شيئًا حتى الآن قائلةً:

- والدي، لقد وصلت لتوي من المطار للمشفى لمكتبك مباشرةً ولا أعلم شيئًا عما حدث حتى تلك اللحظة، هل لك أن توضح ليَ الأمر؟

التفت لها غاضبًا أكثر:

- والدك في المنزل، أما هنا فأنا رئيسك ويحق لي محاسبتك وقتما قصرتِ في عملك، أنت من تبنى تلك الحالة لمجرد أنها أثارت اهتمامك قبل سفرك بيومين فقط دون أي معلومات واضحة عنه أو

عن حالته ونقلتِه من المصحة الرديئة التي كانت تأويه إلى مشفاي التي اعتبرتِها مستوصفًا خيريًا، ليس هذا فقط بل خصصتِ له الجناح الاستثنائي، دون الرجوع إليّ.

شعرت بإحراجٍ شديد وانتقاص هائل من كرامتها وقالت بنبرة متعالية متجنبة تمامًا حقيقة أنه والدها:

- مبدئيًا يا دكتور هذا المريض مقيم هنا على نفقتي الخاصة، هو حالة فريدة ونادرة من وجهة نظري، ستكون موضوع رسالتي الجديدة، كما أن نجاحنا في علاج تلك الحالة سيساعدنا في استعادة سمعة المصحة التي تأثرت بفضيحة انتحار (سيلا) ابنة رجل الأعمال اللبناني منذ ستة أشهر، وأنا أتحدى به.

تراجع د. مراد في جلسته وأسند ظهره على كرسيه الجلد الضخم وقال مستهزئًا:

- فضيحة؟؟ وتتحدى؟؟ امممم...

أشعل سيجارًا، وأكمل بنبرة تحدي:

- إذًا، أمامك أسبوع واحد لتحديد ماهية مرضه، سبعة أيام فقط لا غير، بعدها إما أن تكسبي هذا التحدي أو سألقي بمريضك على قارعة الطريق،

وستفقدين مكانك هنا للأبد.

اندهش الجميع وعلى رأسهم الدكتورة مريم من تلك القرارات العدائية الفجائية والسريعة.

انتفضت من على كرسيها بحنق قائلة:

- أسبوع واحد؟ هذا مستحيل، الحالة تبدو صعبة جدًا وتحتاج لدراسة عميقة ومتابعة طويلة، سبعة أيام مقابل مستقبلي هنا؟ ليس عدلاً.

وكأن الدكتور مراد سَعِدَ بما صرحت به، نهض من على كرسيه منتشيًا، متوجهًا نحو الشرفة، تاركًا الجلوس خلف ظهره قائلاً بحسم:

- الاجتماع انتهى.

همت د. مريم أن تضيف كلمات أخرى لكن د. حاتم أشار إليها ألا تفعل، مثلما أشار للباقين بالانصراف معه في هدوء.

• • •

خرجت مريم من المكتب بحنق تتصاعد الأدخنة من مسام وجهها، إهانة الدكتور مراد غريبة وغير مبررة، لم يكن كذلك قبل سفرها لليومين الماضيين من أجل حضور المؤتمر الطبي بباريس.

نعم كان معارضًا لاستقبال الحالة على اعتبار أن إقامتها وعلاجها مكلفين، لكنها اعتقدت أن تحملها لنفقاتها سيحل الأزمة ويبدو أنه اعتقاد خاطئ، فهو يعارض رغبتها بشكل عام لا وجود الحالة بشكل خاص، أي نعم أموره غريبة منذ فترة ولكنه تمادى مؤخرًا، هكذا صرحت لحاتم.

طلب د. حاتم منها مرافقته لمكتبه لمناقشة الأمر، وأثناء السير حاول إلهاءها عن غضبها قليلاً قائلاً بنبرة صوته الهادئة دائمًا وبحنوٍ يحمل في طياته البهجة لعودتها:

ـ حمدًا لله على سلامتك.

فردت:

ـ أشكرك يا حاتم.

دخلا مكتبه وجلسا متقابلين أمام مكتبه الخشبي الأنيق، عارضًا عليها كوبًا من القهوة بابتسامةٍ امتصت جزءًا كبيرًا من غضبها وتوترها.

هي حقًا تستريح لحاتم وللعمل معه، كما تعتبره صديقها الأوحد والمقرب، يثق في قدراتها ويشجعها على اختراق المحاذير، يؤيدها، يساندها بكل وقته ومجهوده دون كللٍ أو ملل وقد يترك علاج حالاته

ويهتم بحالاتها ولا يهمه لمن يُنسب الفضل، من أجل كل هذا الدعم والحنان وأكثر ترى فيه نموذج الأب المثالي الذي تفتقده، ونموذج لحبيب محتمل.

رفع سماعة هاتفه الداخلي طالبًا البوفية وكوبان قهوة من بنه المخصوص، اختصه من أجلها فهو لم يكن من عشاق القهوة لكنه أصبح، وأصبح يبتاعها من أماكن خاصة وقد يصل الأمر لجلبها من الخارج مع أحد أصدقاءه مستديمي السفر والترحال.

هو أيضًا يراها المقربة الوحيدة، أو بمعنى أدق جعلها الوحيدة، فمنذ قابلها في المشفى لأول مرة وكانت ما زالت طالبة في كلية الطب بعامها الأخير، وهو يعتقد أن ثمة رابط سيربط بينهما، شَعرَ وقتها بعاطفة قوية تجتاح عقله وقلبه تجاهها، ولكن طموحها الشره للعلم والدراسات والأبحاث وتحقيق الذات جعله يفقد الأمل في قبولها هذا الحب في الوقت الحالي، فضم قلبه بما يحوي في صدره وقرر ألا يبوح لها برغبته فيها، حتى يأتي اليوم الذي تقرر هي فيه الحب.

يعشق حاتم تلك اللحظات التي تتقطع بمريم فيها السبل وترغب في الحديث معه، تُلقي بأعبائها إليه، فيحمل كل متاعبها على أكتافه ويجعل سعادتها هي رسالته السامية في الحياة.

سألها مُلطفًا الأجواء:

ـ كيف سارت الأمور خلال رحلتك؟ وبمَ أثمر المؤتمر؟

ردت وهي تعلم سيكولوجيته في التعامل وأنه بهذا التمويه يمهد لطامة كبرى:

ـ كانت جيدة، وأثمر المؤتمر بالكثير، أخبرني كيف هي الحالة أنونيم؟

(الحالة أنونيم، هو الاسم الذي رمّزوا به تلك الحالة المستعصية للشاب المجهول، وتعني أيضًا المجهول باللغة التركية والتي تعشقها مريم كونها من أصل تركي، وبالرغم من أنها لم تذهب لتركيا مطلقًا إلا أنها آثرت تعلم تلك اللغة اعتزازًا منها بأصولها)

تنحنح قائلاً بنبرة رسمية خالية من العواطف:

ـ هذه الحالة لا يمكن أن تكون اعتيادية، أقصد أنه أكثر من مجرد مريض نفسي.

ردت برجاء:

ـ أرجوك لا تبدأ يا حاتم، فأنت تعلم جيدًا أنني لا أؤمن بما تؤمن من وجود خوارق وهذا الذي يسمى بالبارانورمال.

وصلت القهوة، كانت فرصة جيدة للطرفان لالتقاط الأنفاس وتمهيدًا لطيفًا لسرد الحدث الجلل.

رد قائلاً:

- البارنورمال علم يا مريم كعلم الطب النفسي وتجاهله هو ما أدى لفشل العديد من حالات العلاج النفسي، وأخذ هذا العلم في الحسبان لا يضعف من قوة العلاج النفسي بل يساعد فيه وبقوة إذا كانت فعلاً الحالة التي أمامنا من هذا النوع.

لم تهتم كثيرًا كالعادة بما يعتقد حاتم وسألته بتعجل :

- «ماذا حدث في غيابي؟ ماذا لحق بأنونيم؟

تنهد حاتم بقوة كأنه يستعد قائلاً:

- ليلة أمس...

• • •

استيقظ الدكتور حاتم على جرس هاتف منزله الذي لم يهدأ لمدة عشر دقائق متواصلة، وقع نظره على المنبه بجواره فوق الكومود، فإذا هي الثانية صباحًا، رد بصوته الناعس فهو رجل منضبط في مواعيد نومه

وصحيانه، صدمه صوت حنان الممرضة المسائية وهي تقول له بهستيريا:

- دكتور حاتم، المريض الجديد تحول لشبح وأ... أصبح شكله مرعبًا جدًا، لا يمكنني الشرح أكثر من ذلك، لابد أن ترى بنفسك، احضر حالاً من ف... فضلك فدكتور مراد لا يرد علينا.

لم يستطع حاتم التباطؤ، قفز من على سريره المستدير والتقط ثيابه من خزانته غير مهتمٍ كثيرًا بتفاصيله الجمالية الشكلية كالمعتاد، انطلق بسيارته بأقصى سرعة قاطعًا كامل شارع الهرم والطريق الصحراوي في وقت قياسي، وصل أخيرًا لبوابة المشفى الإلكترونية، ثم أخيرًا لصالة الاستقبال الفارغة، وقبل أن يدخل «الأسانسير» تذكر كاميرته الخاصة فعاد لسيارته وأخذها من «التابلوه».

(غير أن حاتم من عشاق التصوير بشكل عام، إلا أنه يعتبره وسيلة جيدة لتوثيق الحالات، فهو يحب التقاط الصور للمرضى ومتابعة تعبيراتهم باستمرار خلال مراحلهم العلاجية المختلفة).

وصل للطابق الثالث أمام ممر الغرفة 103، الغرفة الوحيدة ذات التصميم الفريد، فكي تصل إليها عليك

فتح باب عادي كبقية أبواب الغرف المجاورة، ثم تجد أمامك ممرًا قصيرًا وباب غرفة ثانٍ، هذا هو الباب الفعلي، وممر طويل نسبيًا على يسار الباب حائطه زجاجي عاكس للرؤية يسمح بكشف ما بداخل الغرفة فقط وليس العكس، وقد أصابه ما أصاب بقية الأطباء والممرضات؛ التصلب والدهشة والفزع.

المريض يقف عاريًا ملتصقًا بالحاجز الزجاجي باسطًا ذراعيه عليه كالمتذنب، وقد مزق جسده بالكامل؛ صدره، ذراعيه، وجهه وقدميه بقطوع طولية وعرضية، عيناه شديدة الحمرة، وقد اتسع بؤبؤها بشدة، ومالت بشرته للسواد، يقف هكذا جاحظ العينين ينزف من أنفه وفمه، يحول عينيه بين الحضور كأنه يراهم.

بتردد وقلق وبحذر رفع حاتم كاميرته والتقط عدة صور حاول أن تكون مختلفة الزاوية قدر المستطاع، كان المريض يتابع حاتم بنظرات حادة أينما تحرك، مما أثار الرهبة في قلبه.

لم يدرِ ما كان يجب عليه فعله بالضبط، فالنتائج غير مضمونة نهائيًا لو حاول الدخول عليه والتعامل معه بشكل مباشر، امتدت مهلة التفكير والتشاور بين الأطباء نحو الساعة والمريض على نفس الوضعية، حتى أنهى ذلك الجدال وتلك الحيرة بسقوطه أرضًا

فاقدًا الوعي بمجرد أن اخترق ضوء الفجر نافذة غرفته.

تقدموا نحو الباب بحذر شديد، بينما ظل البعض في الخارج للمراقبة، كان حاتم على رأس المقتحمين البواسل، بهدوءٍ حملوه، وما كادوا يفعلون لولا أن طمأنهم حاتم بعد فحصه بجسارة، كان جسده شديد البرودة وقد تجمدت دماء جروحه، قيدوه في السرير تأمينًا لهم إذا ما استيقظ فجأة، ضمدوا جراحه وستروه بالأغطية، غذوه بالمحاليل وثبتوا به جهاز تنفس اصطناعي بعد التأكد من سلامته وسلامة أجهزته الحيوية.

وفي تمام السابعة صباحًا حضر الدكتور مراد الأغا، الذي تحامل على المريض بقسوة، خوفًا على بقية نزلائه الأكثر أهمية بالنسبة إليه، قائلاً أن سمعة المشفى قد توضع على المحك لتبنيها حالة مثيرة للذعر لبقية المرضى، ورغم محاولات حاتم في تهدئته وأن الوضع تحت السيطرة ولم يتسرب شيء لأسماع بقية المرضى، زادت حده انفعاله فآثر الجميع الصمت.

• • •

- هذا كل ما حدث، لذلك لم أشأ أن تدخلي معه في

نقاش، فهو لن يتزحزح عن موقفه وقد يكون معه بعض الحق فهو يخشى عليكِ.

تنهدت بأسى، ثم بنصف ابتسامة ساخرة متعجبة متحسرة وقالت:

- يخشى عليّ؟! بل يخشى على مستشفاه، أتعجب لأمره، لماذا يصر على جعل مستشفاه مجرد منتجع صحي للاستجمام! مكتسبًا شهرته فقط من الأثرياء المرفهين تافهي الأزمات ويرفض علاج الحالات الحقيقية، لم يكن كذلك؟

حاتم: لعل من كثرة ما رآه يا مريم، الدكتور مراد رجل ذو خبرة ونظرة عميقة للأمور، يعلم جيدًا من أين تُؤكل الكتف، ومن أين تأكله، وفي حالة هذا المريض أشاركه التخوف.

لم تلق كلمات حاتم الأخيرة استحسانها فتجاهلتها مستكملةً:

- عهدت أبي منذ طفولتي طبيبًا لا يخشى المجازفة، ولكنه كف عن تلك المغامرات منذ وفاة أمي، حاولت إنعاشه مهنيًا بحالة (سيلا) وبسبب عناده فشل علاجه لها ملقيًا اللوم عليّ بلا سبب مقنع، وأوقفني عن العمل ثلاثة أشهر.

عض حاتم شفتيه مفكرًا ثم قال:

- كانت فترة مريرة أحدثت شرخًا عميقًا في بنيان ثقتكما ببعضكما البعض، (رفع عينه قليلاً بخبث عابر مستكملاً) كانت تجربة قاسية لعله يخشى من تكرارها.

لم تلق مريم بالاً لجملته وأخذت ترشف قهوتها.

صمت لبرهة ثم قال بنبرة أكثر حيوية:

- دعينا لا ننجرف للخلف وما سبق أن طويناه، تحديكِ هذه المرة لابد أن يكلل بالنجاح، فعناد الدكتور مراد ما هو إلا خوف زائد في هيئة عداء.

صمتت الطبيبة لبرهة تحسست خلالها شفتيها وذقنها بأناملها الرفيعة تفكر بعمق، نظرت لحاتم ثم همت واقفة بحماس:

- لابد أن أراه، وحالاً.

أومأ بالموافقة وعلى الفور غادر معها المكتب إلى الغرفة 103.

كان المريض ما يزال نائمًا تحت تأثير حقنة المخدر، نظرت له بتفحص، للجروح المتعددة، ثم فحصت عينيه وسلطت ضوءًا شديدًا عبر مكشاف الفحص الطبي

فوجدت كل شيء طبيعي بالنسبة لإنسان منوم، فحصت فمه واكتشفت شيئًا، أنهت الفحص وقبل أن يغادرا الغرفة ألقت نظرة على الغرفة ودورة المياة وكان كل شيء على ما يرام.

سألته: هل فحصته جيدًا في وقتها؟

قال: نعم، وكان كل شيء طبيعي.

توقفت في حيرة شديدة قائلة:

- نزيف الفم بسبب قضمه للسانه أما جروح جسده فلا أعلم من أين أتت.

وجهت حديثها للممرضة الصباحية:

- حافظوا عليه مقيدًا طيلة الوقت.

نفخت نفخة يأس محدثة حاتم:

- المهلة المتاحة أمامنا هي سبعة أيام، أتتخيل ذلك؟

رد قائلاً: وما المشكلة في نقله لمشفى آخر؟

ابتسمت نصف ابتسامة ساخرة:

- يبدو أنك لم تنم جيدًا أيها الطبيب! نحن ننتمي إلى هنا وتلك حالتنا، إذا تم نقله فسيتولاه أطباء

آخرون.

ضم شفتيه ورفع حاجبيه واعتذر عن سقطته.

نظرت له بتحدٍ بعد لحظات من التفكير الشارد قائلة بحسم:

- لن أسمح بإضاعة الوقت، هيا إلى العمل، قابلني في المساء لتناول العشاء ومناقشة خطة العلاج، فأمامنا حالاتان مستعصيتان.

غمزت بعينها اليمنى فابتسم حاتم وأشار بعلامة التأكيد.

وافترق كلٌ منهما في الممر الطويل، على موعد.

• • •

مرت الدقائق ساعات ومصطفى جالس على أرضية الحمام لا يقوَ على النهوض في عالم موازٍ اختفت فيه الجدران والمرآة بل والشقة كلها، واجدًا نفسه في صحراء لا تحصر العين مداها، يشعر أنه محاط بعيون غير مرئية، تدور حوله ببطء ثم أسرع فأسرع ثم تُبطئ مرة أخرى.

تجسدت أمامه مشاهد كأنها مسرحية في عهدٍ قديم، قديم جدًا، رأى نفسه البطل فيها، يرتدي ملابس

فرعونية، ويتعبد لتمثال أفعى ضخمة ويُلقي بتعاويذ كتاب لعنة أبيب.

بدأت كل المشاهد في الانهيار أمام مصطفى كأنها ديكور هش أطاحت به الرياح فتبعثر.

وفجأة انتشلته يدٌ غريبة من تلك المتاهة العجيبة وأظلمت الدنيا بعدما بزغ ضوء شديد في عينيه.

• • •

« تششششششش، الإذاعية المحلية تق...شششششش... برنامجكم المفضل: ما وراء الطبيعة، برنامج يعده ويقدمه الدكتور نجم الدين السيوطي... تششش... مساء الخير أعزائي المستمعين اليوم سوف نتحدث عن ظاهرة أثارت جدلاً واسعًا على مر العصور وهي لعنة الفراعنة... تششش... كان القدماء المصريون يعتقدون في فكرة البعث بعد الموت لذلك كانوا يحنطون موتاهم ويدفنون معهم الطعام والمجوهرات وكل شيء سوف يحتاجه المتوفى في الحياة الأخرى... تشششش... ولما كان لصوص المقابر متواجدون على مدار التاريخ عمد المصريون على نقش لعنات على قبور موتاهم لإرهاب اللصوص، ومر زمن طويل جدًا آمن فيه الناس بتلك اللعنات...

تششششش... ولكن مع التقدم العلمي بدأ الإيمان بها يندثر، حتى عاد مرة أخرى عند اكتشاف وفتح مقبرة الملك توت عنخ آمون... تششششش... وموت 40 شخص ممن شاركوا في فتح مقبرته من أصل 85 شخص في حوادث مفاجئة وغريبة أثارت الشكوك، وألقت الضوء على لعنة الفراعنة... تشششششششش»

يحاول حاتم تحريك مفتاح الراديو يمينًا ويسارًا لضبط تردد المحطة الإذاعية ولكنه يفشل، لكمه بغضب، إنه برنامجه المفضل الذي يتابعه منذ شهور:

- أووووف تبًا لهذا الراديو المتهالك».

يبطئ سرعة السيارة حتى توقفت تمامًا منتظرًا الدكتورة مريم أمام فيلتها بالمنصورية، ما هي إلا دقائق معدودة وفتحت باب السيارة مُلقيةً عليه التحية المسائية، وأنطلقا حيث مكانهما المفضل، أحد المطاعم البسيطة المُطلة على سفح الأهرامات.

جلسا على طاولتهما المعهودة، وأخذت مريم تحتضن المكان بنظرات اشتياق.

(يقولون أن للأماكن روح ورائحة، إما روح ثقيلة وعفنة تلقي بك في جب الكآبة والاختناق، أو روح طيبة وعطرة تملأ قلبك بهجة وانشراحًا، وبهذا تشعر

مريم في ذلك المكان الذي استمد سحره من بساطته)

قاطع حاتم هيامها راميًا عليها اندهاشه من نظراتها الشوقى:

- لم يمر وقت طويل منذ آخر مرة كنا ها هنا.

وابتسم.

نظرت في عينيه ثم نظرت بعيدًا شاردة، حدثتها نفسها عن وسامة وجاذبية حاتم التي تُزيدُها جاذبية المكان بهدوءه الذي استعاره منه قائلةً لها «لو أنه يعلم ما ينطوي عليه قلبك، ولو أن مثله في قلبه، لكنت أسعد نساء الأرض»

نظرت له مجددًا وتنهدت قائلة:

- أشتاق يا حاتم.

ذابت ابتسامته وانتبهت عينيه، تمنى لو يفعل سحر المكان مفعوله وتُكمل الجملة بما تهوى مسامعه وكل جوارحه، سألها بلهف:

- تشتاقين من؟

استفاقت وهي كارهة، لطالما تمنت أن يباغتها هو بكلمة (أحبك) التي تنتظرها منذ أول لقاء جمع بينهما ولكنها لا تملك جرأة الاعتراف كأي فتاة شرقية تحترم

حياءها، ويا ليتها ما احترمته، لقد جاوزت الخامسة والثلاثين وهي تنتظر، كم تتمنى حقًا ألا تسمعها في مرحلة صبغة شعر لاكتويل، وقالت:

- أشتاق للمكان بمجرد خروجي منه.

حك ذقنه مواريًا تعابير الخيبة المتراقصة على وجهه، لاهيًا نفسه بالنظر في قائمة الطعام قائلاً:

- امممممم، نعم، يا لحظه السعيد.

لحظات وقالت بحنو زائد وكأن السحر باغتها من جديد:

- لا أشتاق هذا فحسب.

فألقى بالقائمة وعاد منتبهًا من جديد سائلاً بلهف:

- تشتاقين ماذا أيضًا؟

استفاقت مرة أخرى وهي كارهة قائلة بتلعثم:

- هاه! أ... أشتاق لتلك الجلسة.

نفخ حاتم تلك المرة بحنق قائلًا:

- والجالسون؟؟ ماذا عنهم؟؟ ألا تشتاقين لشيء حي في هذا المكان؟

اتسعت عينا مريم من رد فعل حاتم غير المتوقع، ثم

انفجرت ضاحكة، حتى أرغمته على الضحك، حضر الجارسون وطلبا عشاءهما المفضل؛ قطعتي الدجاج المشوي وبعض الأرز وسلطة خضراء والحلو كأسين من سلطة الفواكه الطازجة.

(كان هذا قمة العشاء الرومانسي البديع في التسعينيات)

وأثناء انتظار الطعام

ذهبت اللحظات المرحة لحال سبيلها واستحضرا جو العمل الجاد.

بدأت مريم قائلة:

- ستبدأ مهلتنا من صباح الغد الموافق أول مارس، كم هو دقيق الدكتور مراد! فكرت ووجدت أنه من المنطقي البدء بتجميع المعلومات الكافية عن الحالة بحيث لا نغفل عن أي شاردة أو واردة تخصه.

لدينا عدة محاور نبحث فيها، قسمتها بيننا لإنجاز الوقت، ستذهب أنت للمصحة التي مكث فيها الستة أشهر الماضية، وتجمع كافة المعلومات المتاحة لديهم عن حالته وما توصلوا إليه خلال تلك الفترة فلم يتسن لي الوقت لمعرفة التفاصيل،

ثم تبدأ بالبحث عن الشخص الذي أودعه المشفى وتركه واختفى والسبب وراء ذلك.

أخرجت ورقة من حقيبتها مدون فيها اسم هذا الشخص وعنوانه المثبت في سجل المشفى الأولى.

استكملت:

- للأسف هذا العنوان غير صحيح بالرغم من أنه المثبت في سجل المشفى وبالتالي فهو المثبت في بطاقته الشخصية أيضًا والتي ملأ بها أوراق إيداع المريض على مسؤوليته، ولكن قبل سفري توجهت لهذا العنوان ولم أجد أحدًا بهذا الاسم في هذا المكان.

اطلع حاتم على البيانات مردداً محتواها:

- سمير حورس، المهنة طبيب! 234 ش الهرم، وما علاقة هذا الشخص بالمريض يا ترى؟

قالت:

- لا أدري، كل ما عرفته أنه أودعه في تلك المشفى على مسؤوليته الشخصية لعدم الاستدلال على أي من أقاربه، حتى المريض فاقد للذاكرة تمامًا ولا يعلم من هو ولا من أين أتى أو ماذا حدث ولا أحد

يعلم من أين أتى به هذا الطبيب، لكنه تكفل بعلاجه وقال حسب ما صرحت به إدارة المستشفى أنه كان يعمل لديه سائقًا وتعرض لحادث ولا يعلم عنه أي شيء، فقط منحه الوظيفة بالشفقة.

رد حاتم بتشكك:

ـ لست مقتنعًا تمامًا بتلك الرواية!

قالت:

ـ مثلك تمامًا لا أصدق، ومثل صديقتي الطبيبة التي حدثتني عن تلك الحالة، قالت لي أنها كانت في زيارة لطبيب هناك وسمعت عن «الحالة ج» كما رمزوا له عندهم، وأنها تستشعر أمورًا غريبة، المهم أن هذا الشخص اختفى وكأنه فص ملح وذاب، وقررت المشفى إخلاء مسؤوليتها عن المريض وكانوا على وشك تسريحه لإحدى المستشفيات الحكومية، لولا أننا تسلمناه على مسؤوليتنا الخاصة وبإقرار شخصي مني، لذا أود منك البحث في ذلك، أما أنا فسأنتظر نتائج بحثك.

رد حاتم المستغرب قليلاً بعد لحظات من الصمت

المتعجب:

- أهذا هو تقسيم العمل؟

قالت بجدية: «بلى»، ما زال الاستغراب الاستنكاري يعتلي وجهه، ابتسمت مستكملة:

- أمزح معك، بالطبع لا، سأقوم ببدء جلسات العلاج مع المريض وسأتفرغ له بالكامل، لعلني أصل لشيء يفيد و...

قاطعها: لا، لا يمكنني تركك تجالسينه بمفردك، قد يخرج عن السيطرة.

- لن أكون بمفردي بالطبع، سيرافقني دكتور نابر والممرضين.

تنهدت وأكملت:

- يجب علينا استغلال كل لحظة، كل ما أنشده أن نمسك بطرف الخيط، فالمرحلة الأصعب في أي علاج نفسي هي تحديد المرض وإقناع المريض بأنه مريض، فهو الوحيد القادر على تسهيل مهمتنا أو تعقيدها، اعترافه بمرضه هو نصف العلاج، ومن ثم تصبح المرحلة التالية المعتمدة على الدواء الكيميائي غير متعلقة بمكان معين أو ذو

تجهيزات معينة.

- حسنًا، سأتوجه صباحًا لمشفاه الأول وأبذل قصارى جهدي، ما اسم الطبيب الذي باشر الحالة؟

- محمود سليمان.

• • •

حضر العشاء

واستمتعا به، لم تكن جلسة عمل مئة بالمئة، كان يمكنها أن تقول ما قالت عبر الهاتف أو حتى في مكتبها، كانت حجة للانفراد بحاتم ليس إلا.

(أتسائل كثيرًا، كيف لقلبين يعجان بكل هذا الحب! وعقلين يحملان كل هذا القدر من النضج أن تمتلئ روحيهما بكل هذا الجبن! فكرت كثيرًا ووجدت إجابة واحدة منطقية، إنه الخوف من الفقد والخسارة، الخوف من الفقد، الخوف)

انتهيا من عشائهما، وغادرا المطعم، كانت تؤخر خطواتها قليلاً كي يتسنى لها أن تنظر لقسمات وجهه الجانبية كما تشتهي ولا يلحظها، عُقدة حاجبيه ونظراته الجادة، كانت تذوب في ثقل طبعه ورزانة تعبيراته التي لا تهتز بمرور جميلة بجواره، كانت سعيدة بفرق الطول البسيط بينهما لأن ذلك يقربها أكثر منه.

كان هو الآخر يتعمد سبقها للسيارة، حتى يتسنى له مشاهدتها وهي تتمشى نحوه تلك الخطوات القليلة، يرى خصلات شعرها والهواء يتلاعب بها، تزيحهما بأصابعها الرقيقة عن وجنتيها ثم تدس يديها في

معطفها، يرى طلتها التي يعشقها صباحًا ويذوب فيها عشقًا مساءً، يفتح لها باب السيارة كالأميرات.

فعل ذلك تلك المرة كالعادة ولكن هذه المرة على غير العادة ركلت بعض الحصوات على الأرض عقب نزولها من أعلى درجات سلم المطعم.

ابتسم قائلاً:

ـ تلك علامة مَرضية أيتها الطبيبة.

غمزت بعينها اليمنى قائلة:

ـ كلنا مرضى أيها الطبيب.

وانطلقا لفيلتها، ودعها وودعته بشفاه تقول: «أراك غدًا» وعينان تقولان «سأشتاق إليك»

• • •

كانت يدا مجدي التي انتشلت مصطفى من غيابات حلم يقظته المضني، لا يدري ما أصابه منذ ليلة أمس، تعجب مجدي من أمره وسأله ما الذي ألقى بك هكذا على أرضية الحمام، لم يستطع مصطفى الرد، فقط ظل يرتعش، ساعده على النهوض وساقه لغرفته، ألقاه على سريره وذهب للمطبخ ليحضر له بعض الماء، نظر مصطفى للمخدة ولم يجد شعره الذي تساقط، تحسس

رأسه فوجده فوقه.

عاد مجدي بكوب الماء، وما إن رأى صديقه في حالة مريرة حتى ركض نحوه وضمه لصدره مطمئنًا إياه، مستفهما عما حدث، قال له مصطفى باكيًا أنه تخيل أن شعره تساقط وأصبح أصلعًا ولم يرَ نفسه في المرآة والكثير من العبارات غير المفهومة، فهدأه وعفاه من استكمال الحديث، وطمأنه أن كل شيء على ما يرام.

سقاه بعض الماء، بضع دقائق وهدأ نسبيًا، لاحظ عليه الإرهاق والنعاس فتركه لينام ويرتاح، وخرج بعد أن أطفأ النور موصدًا الباب خلفه.

ذهب مصطفى في نوم عميق على الفور، لا يدري كم من الوقت مر قبل أن يشعر بهزة أرضية عنيفة، جعلته يستيقظ فزعًا، تخشب على سريره مشدوهًا من هول ما رأى، السقف يتشقق وينهال التراب على رأسه، الجدران أيضًا تتشقق ويخرج من بين شقوقها أفاعٍ سوداء صغيرة كثيرة تقترب منه وكلما اقتربت زاد حجمها، كاد قلبه أن يتوقف، حاول الابتعاد والاحتماء بالغطا، حاول ضربها وإبعادها لكنها قوية وصلبة، فتحت أفواهها وكادت أن تلتهمه لولا لمعة الخاتم الأسود الكبير في يده، كان شعاعه كالسحر، جعلها تتراجع وتتجمد فاتحة له الطريق الذي عبر منه بسرعة

البرق هاربًا من الغرفة.

صرخ على مجدي كثيرًا لكن لا مجيب، اختفى مجدي أو لعله لم يكن هنا من الأساس، فجأة انفتحت النوافذ بعنف، كانت الرياح قوية في الخارج، ثم انهالت السماء بصواعق البرق، نظر لكتاب لعنة أبيب مرغمًا من صوت صفحاته التي أخذت تتقلب بسرعة شديدة، حتى استقرت على صفحة معينة، رغم خوفه الشديد إلا أن شيئًا أرغمه على الاقتراب عنوةً منه، كان المكتوب كرسالة لم يقابلها عند قراءته الكتاب أول مرة :

«احضر حالاً، نحن بانتظارك، وإلا سوف تلتهم تلك الأفاعي روحك اللعينة»

جحظت عيناه، وتبادر على لسانه سؤال لا إراديًا:

«ما هذا؟ من أنتم؟»

وكان الجواب أن عصفت الرياح بلوحة الأهرامات غير المكتملة وشقتها لنصفين، هنا أدرك مصطفى أن قوىً غريبة وعنيفة هي التي تراسله وأنها ليست أحلام ولا أوهام، إنه أبشع كابوس حقيقي قد يعيشه لآخر مرة في حياته على ما يبدو.

بدأ مفعول سحر الخاتم يبطل والأفاعي تستيقظ

وتتوجه إليه بغضب أكبر، فلم يفكر كثيرًا ولا قليلاً وركض مغادرًا.

• • •

خرج مصطفى للشارع كالمجنون، الشارع كان هادئًا وجوه معتدل، لا أثر لعواصف ترابية أو صواعق رعدية، على كل حال أصبح الأمر شبه واضح، فقدماه تحمله عنوة لطريق لا يرغب فيه، ولحقيقة يرفض التسليم بها ولها.

كان مع كل خطوة يخطوها يخفت نور الشمس تدريجيًا، وما أن استقرت به قدماه بين الهرمين كان الليل قد انتصف، تجلت الخيمة السحرية من جديد، أصبح متيقنًا أن الأمر حقيقة لا كابوس، قوىً ما دفعته داخل الخيمة، كبّته على وجهه ودسته في التراب، رفع رأسه ببطء فكم هو مرهق وضعيف.

استقرت أمامه أقدام امرأة ترتدي حذاءً ذهبيًا يُظهر نصف أصابعها والنصف الآخر يكسوه الذهب، إنها أحذية الفراعنة الشهيرة، نعم لقد رآها في المتحف المصري، دب الرعب في قلبه، جعله يتعرق مرتعدًا من المجهول المنتظر، رفع عينيه رويدًا رويدًا، ذلك الزي الطويل الأسود، ليس فرعونيًا على كل حال، يدان

متشابكتان مخللتا الأصابع مضمومتان على البطن، هي امرأة لكن مهلاً! امرأة برأس أفعى!

شهق بقوة أطاحت به على ظهره، زحف للخلف وهي تلاحقه، رأس الأفعى الأضخم على الإطلاق تُخرِج لسانها المشقوق من فمها، تلك الشيطانة عيناها شديدة الاحمرار، يتساقط من فمها دماء عفنة الرائحة، شعر أن الرمال تتحول من تحته لملمس آخر غريب! الرمال تحولت لعقارب.

صرخ بكل قوته: «أرجووووووكِ، لا أريد أن أموت، لا أريد الموت، أتوسل إليكِ» منفجرًا في البكاء.

تعجب وجه المرأة الأفعى واختفت العقارب في لمح البصر، تراجعت ثم أطلقت ضحكة أنثوية عالية.

تقشرت الأفعى وظهر من تحتها وجه امرأة شديدة الجمال، ليست بغريبة! إنها نفسها سيدة الليلة الماضية التي ظنها كابوس.

بدأت تتضح الصورة ويزول عنها الغيم والضباب، ظهرت نفس حفرة النار جالسًا أمامها نفس الساحر المطموس.

لم تتوقف المرأة عن الضحك إلا وهو يحدث نفسه بلعثمة واضطراب: «مستحيل، ما أنا فيه ليس حقيقيًا،

إنه كابوس، لابد أن أستفيق».

أمسك برأسه وأخذ يضربها ضربات شديدة بقبضتي يديه، صرخت المرأة بقوة: «توقف».

انتبه لها الشاب بعد المرة الثانية التي قالت فيها توقف موجهة له لكمة من على بُعد نزلت على وجهه بيد خفية، ألقت به على ظهره.

رفعت يدها في الهواء فارتفع جسده بيد خفية، وتركته هكذا معلقًا، اقتربت منه وهي تتمتم بتعاويذ هيروغليفية، ثم قالت بالعربية: «إن كنت تعتبر ما تراه كابوسًا فأنت لم ترَ كوابيسًا بعد، استسلم وإلا أحرقت روحك العفنة».

ثم دارت حوله قائلة بحنوٍ قاتل يتلذذ بتعذيب ضحيته: «لا تخف يا صغيري، هكذا يكون الأمر في بدايته، لكن ستهدأ صدقني وستعتاد وتشاركنا المرح».

كان لسانه معقودًا، وكلما حاول إفلات نفسه يزداد تأرجحه في الهواء ويغلُظ قيده أكثر، بدت نظرات الاستياء تحتل وجهها، وقست نبرة صوتها قائلة بغضب: «لاااااا، أنت غير متعاون نهائيًا، ولن نصل لمبتغانا سريعًا».

اقتربت منه أكثر وأشارت بيدها فهبط من علوه

هاويًا على ركبتيه، ما زال مقيد اليدين ولا يقوَ على الحراك، نظرت له بشفتين مضمومتين تعبيرًا عن محاولة كبح جماح غضبها، ثم أشاحت بوجهها كالتي تتخذ قرارًا ثم عادت تلتفت له قائلة بهدوء مصطنع: «مممممم، لم أكن أود أن أقولها إليك مثلما ستكون الآن لأنني أعتبرك في مقام ابني البار، ولكن تذكر أنت من تغابى ولم يفهم من البداية، تعال».

تقدمت نحو حفرة النار تجر جسده خلفها «انظر» مشيرةً للحفرة التي خمدت نيرانها وتحولت لصفحة ماء شفافة كالمرآة السحرية، رأى مصطفى نفسه وهو ما زال في منزله يتحدث مع مجدي حديثهما الأول عن كتاب لعنة أبيب، وتحذيره له من قراءة تلك النوعية ورحيله، ولكن ما هذا الذي حدث بعدها مباشرةً؟ والذي لا يتذكره مصطفى على الإطلاق!

غير معقول!

يراقب مصطفى رحيل مجدي من الشرفة حتى اختفى عن النظر تمامًا، لمّا تأكد من رحيله أغلق الشرفة وتأكد من وصد كل النوافذ والأبواب، عاد مرة أخرى وبالفعل لم يرحل سريعًا كما كان يظن، أمسك كتاب لعنة أبيب مرة ثانية وظل يردد اللعنة مرارًا وتكرارًا، بدأت الرياح تزوم وهبت عاصفة ترابية داخل

الشقة فقط.

بدأت الأفعى تظهر وكانت ودودة، ثم فجأة ضرب الأرض زلزالٌ قوي، وحدث الأمر.

انهار المنزل كله، فزع الناس في الشارع وخرج الباقون من نوافذهم يستكشفون مصدر الارتطام الضخم، تعالت صرخات النساء والأطفال من الهلع، وسادت الفوضى، تكومت الخلائق أمام المنزل المنهار.

صرخوا في بعضهم البعض لطلب الإسعاف والمطافئ والنجدة.

يتابع مصطفى تلك المشاهد عبر المرآة السحرية بعينين متسعتين عن آخرهما وأنفاسٍ سريعة متلاحقة.

بدأ رجال الحي الشهماء بالتنقيب بين الأنقاض عن أحياء، أو بمعنى أصح الحي الوحيد، بعد مدة وعناء صرخ أحدهم صرخة الظفر: «لقد وجدناه، وجدناه».

ها قد وصلت عربة الإسعاف والمطافئ، حملوا المصاب على نقالة وسط عبارات: «لا حول ولا قوة إلا بالله» «إنا لله وإنا إليه راجعون».

لم يكن وجهه غريبًا، بل لم يكن غريبًا على الإطلاق؛ كان هو! نفسه! مصطفى!

• • •

الخطوات الأولى دائمًا هي الأصعب، تتجلى معها التعقيدات والتحديات والعقبات، ولكن ما إن تخطوها حتى تنطلق قدماك ويغدو التوقف مستحيلاً، الفيصل في الموضوع هو البداية، من أين تبدأ أولى خطواتك! فبعض البدايات لا تؤدي إلى النهايات بل قد تكون هي النهاية ذاتها.

استيقظ حاتم على غير عادته فاقد النشاط، يود ألا يذهب لأي مكان اليوم، شعور خانق قد يعتريك صباح يوم ما، تعاكسك فيه أدق التفاصيل وتنذرك بأن شيئًا ما بانتظارك لا ترغبه.

بدأت بعدم إيجاد كندرته التي يخلعها تحت السرير قبل النوم كل ليلة في نفس مكان إنزال قدميه، تلك فقط كفيلة بتعكير صفو مزاجه طيلة العمر، كانت الضربة الأولى بالنسبة إليه.

حاتم رجل منظم ولا يحب المفاجآت، بعيدًا عن أنه دكتور استشاري نابغة وحاصل على أكثر من دكتوراة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف إلا أنه يؤمن بالفأل وبأشياء أخرى، فهو يقر دائمًا بحكم عمله أن الكثير من اللامفهومات واللامنطقي يحيط بنا ويتحكم في الكثير

من الأمور، وأن بعض تلك الأمور يجب أن تُؤخذ هكذا دون محاولة لتفسيرها منطقيًا، وإن حاولت فأنت الخاسر الأكبر؛ إما لوقتك أو عقلك.

أما الضربة الثانية لم يغرد عصفوره الحبيب ككل صباح عند رؤيته كأنه لا يرغب هو الآخر في خروجه اليوم، بدأ القلق يدب في قلبه وملامح وجهه.

ورغم ذلك توجه لأخذ حمامه الدافئ شتاءً المنعش المعتاد، وانطلق بنشاط بعد قهوته وفطوره البسيط، وفجأة انكسر فنجانه بلا سبب، فقط انفجر هكذا من تلقاء نفسه، لم يهتم أو لم يحاول الاهتمام فهو رجل عميق كما علمنا، لم يحاول تفسير اللامفهوم هذا.

ذهب لغرفته وارتدى بلوفر مبهج وبنطال جينز واسع كأي رجل تسعيناتي أصيل، التقط كاميرته التي لا يذهب لأي مكان سوى الحمام بدونها (كان يحلم بأن يكون صحفيًا)، قاصدًا مستشفى (الإرادة)، المشفى الأولى التي استقبلت الحالة «ج» كما أسموها أو الحالة «أنونيم» كما أسمتها مريم.

وعلى باب العمارة تقف سيارته كالعروس، سيارة «شاهين» تركوازية اللون، تحفة عصرها.

رفض محركها الدوران، حاول مرارًا وتكرارًا وباءت

تلك المحاولات بالفشل، هو يعلم أن اليوم ليس بحالة جيدة لكنه تأكد الآن، وما إن لعنها حتى دارت كالرهوان، وانطلق متجهًا لمنطقة حلوان.

طالت المسافة أكثر من المعتاد، شعر أنه يمر على نفس الأماكن أكثر من مرة كأنه يعيد الطريق، قد يكون لجهله بالطريق، ربما! فهو لم يأتِ حلوان كثيرًا من قبل، ولكنه لا يتذكر أنه اتخذ ملفًا يعيده لنفس الأماكن! قال في نفسه تلك نتائج الأرق المريرة.

وأخيرًا وصل لبوابة المشفى ذات الحراسة الضعيفة، فهي مشفى خاصة ولكنها الأقل شأنًا بين المستشفيات الخاصة الأخرى، أظهر تحقيق هويته وطلب مقابلة الدكتور «محمود سليمان»، لم يكن قد وصل بعد فتلك المشفى تعاني الكثير من التسيب على ما يبدو، اقترح عليه موظف الاستقبال انتظاره في الكافيتريا لحين حضوره.

توجه حاتم مشمئزًا لأفضل أسوأ الطاولات فيها، بعد قليل هبط عليه عامل البوفيه كأنه جرسون في قهوة لا موظف في مشفى، شاب طويل نحيف ذو شارب أسود وشعر خشن مجعد، قمحي اللون تحيط الهالات بعينيه يحك أنفه كل خمس ثوان، لن تحتاج المزيد من الشواهد كي تتوقع أنه يتعاطى شيئًا ما.

شعر باشمئزاز منه ومن كل شيء، فطلب عصير في علبة مغلقة، حاتم مريض بوسواس النظافة لأقصى حد قد تتخيله.

وبينما هو يحتسي العصير أخذ يتسلى بتنقيل نظراته في الحديقة ثم أدار رأسه فإذا بأحد المرضى ينظر إليه من مسافة قريبة إلى حد ما، نظرة مطولة تستهدفه، كان رجلاً كبيرًا، أشعث رث الهيئة، أطال هو الآخر النظر إليه فأشار المريض لأعلى محددًا نافذة بعينها، لم يفهم حاتم وأدار رأسه لثوانٍ معدودة ثم أعاد بعدها النظر نحوه فلم يجده.

ظل مُعلقًا عينيه على مكان الرجل الذي أصبح فارغًا بدهشة حتى ظن أنها هلاوس قلة النوم، وفجأة اخترق صوتٌ مبحوح أذنه قائلاً: «الشيطان».

التفت حاتم منفزعًا فإذا بالرجل أمامه مثبتًا نظره عليه بشكل مخيف، انتفض قائلاً: «ماذا؟».

المريض: «الشيطان كان يسكن تلك الحجرة، تصيب لعنته كل من يقترب منه، وإني أشم رائحته فيك».

ثم فجأة أتى ممرضان وسحباه من ذراعيه معتذرين للطبيب الضيف، وظل الرجل يكرر مقولته حتى أخفوه داخل المبنى.

مرة أخرى يجلس ويتجاهل الأمر فهو ليس إلا مريض نفسي يبدو أنه مصاب بداء الوهام، لم يلبث أن استعاد صفاء ذهنه فهو متشائم بما فيه الكفاية، حتى هبط عليه موظف الاستقبال مخبرًا إياه أن الدكتور «محمود سليمان» قد وصل للتو.

حمد الله ونهض مرة أخرى متوجهًا مع الموظف لمكتب الطبيب ونفسه تحدثه بأن هناك شيء ما في تلك الغرفة لابد أن يراه، هكذا هو الفضول يجذب الجميع لهوس المعرفة مهما كان الثمن غاليًا ومهما كانت النتائج مهلكة أو منجية.

• • •

انقطع البث السحري فجأة وأظلم كل شيء حول مصطفى الذي كان ما زال مشدوهًا ومذهولاً مما رأى، شعر باجتياح نسمة باردة عاتية تتخلل جميع أجزائه كالخدر، شعر ببرودة كالثلج تستقر في صدره وتغيبه عن الدنيا، وكأن روحه انفصلت عن جسده وتلقفتها الملائكة، تسبح بها بين طبقات السماء حتى استقرت. فتح عينيه برفق وبحذر شاعرًا بالدفء المفاجئ عقب البرودة القاسية، استفاق لا يعلم أين هو وما المصير؟!

هو هنا، نعم؛ داخل جسده أو بجواره، يشعر به كقبر

أو كسجن، هو هنا، ويعلم أن جسده ملقىً على سطح أرض قاسية، أما روحه فترفرف في مكانٍ ما، أمامه على مستوى النظر هضبتان عاليتان مائلتان على شكل رقم 7، تخفي قمتهما غيمة سوداء كبيرة، المسافة بين ما أمامه وما خلفه كطول الهرم الأكبر مرة ونصف، وبين يمينه وشماله ثلث المسافة تقريبًا، تخفي الغيوم الكثيفة السوداء ماهية ونهاية تلك الأبعاد، بدا له أنه يسبح فوق سطح مدينة صغيرة في عالم معنوي محدود، أرضها أصلب من الماء كثيرًا وألين من التربة كثيرًا، غُلِفت سماء تلك المدينة بقبة من الضباب الأبيض.

وفي خضم معاناة روحه في استكشافٍ فاشل لما هو فيه تساقطت قطرات من الندى شقت هذا الضباب، القطرة الواحدة بحجم بالون المنطاد، ثم ضربت الزلازل أرجاء المكان فركض حول نفسه فزعًا يتفادى تلك الأمطار، ركض أكثر وأكثر حتى وصل بعد مسافة طويلة لأقرب نقطة من المرتفعين المُسبعين، ليواجه حقيقة الأمر؛ قمة المرتفعان ما هما إلا الأصابع الخمس لقدم الإنسان، تلك هي الحقيقة الثانية، إنه يركض أعلى سطح جسد.

(من جزم بأن البرزخ في السماء وأن الروح تفارق

الجسد بالموت؟ هي فقط تنفصل عنه لكن لا تتركه، تظل مرتبطة به حتى وإن أضحى ترابًا منثورَ الذرات في البحر أو في البر أو حتى في الفضاء، تسبح الروح بين حباته ليوم الجمع، ما أخلص الروح للجسد!)

عندما تدرك الحقائق كاملة تُنتزع الحُجب ولا تجد الأسرار بُدًا من الاستسلام، تنزاح ستائر المجهول وبدلًا من أن تعاين الحدث ستكون أنت الحدث.

وفور اكتشافه أين هو والمصير، أصبح الجسد بالنسبة إليه كقطعة خبز ملقاة على الأرض، ثم بدأ ذلك الجسد في الانتفاض كأن شيئًا ما يسحب صدره لأعلى ويهوي به، مرة وراء الأخرى، وفي كل مرة كانت الروح المُعلقة تنجذب أكثر نحو الجسد، ومع آخر نفضة التصقت الروح به تمامًا.

شعر وهو داخله أنه حيٌ في جسد ميت أو ميتٌ في جسد حي، شعور غريب، أغرب ما فيه أنك تشعر بكل ما حولك إلا بنفسك، ذاتك، ثقلك على الأرض، حتى الجروح لم تَعُد تؤلمك.

تعالت الأصوات من حوله وتداخلت، لم يميز أيًا منها، يحاول فتح عينيه ومباعدة جفونه عن بعضها البعض ولا يقوى، بدا كل شيء ضبابي، بدت حوله

مجموعة من الأشباح تحوم، لم يسمع سوى مقولة واحدة: أنه «ما زال على قيد الحياة»، الحياة التي لا يشعر بها! أو لعلهم يقصدون الحياة الأخرى!

• • •

الأكاذيب ليست فقط أن تعكس الحقائق، مجرد إخفاء الحقائق تعد أكذوبة، أن تحرف الحقائق تلك أيضا أكذوبة، ولا ألوان للكذب، فلا فرق بين أسود وأبيض ما دام الهدف هو طمس الحقيقة لأي غرض.

دق حاتم باب مكتب الدكتور محمود سليمان الذي سمح له بالدخول على الفور.

بعد التحية والشعور المرتاب من ناحية حاتم تجاه محمود سليمان الطبيب الأربعيني الذي احتل الشيب كامل شعره ولديه ندبة في خده الأيمن بسيطة، عمد إلى تعريف نفسه مباشرةً قائلاً:

- أنا د. حاتم الذهبي استشاري الطب النفسي بمستشفى دار النور.

زادت حميمية الترحيب من ناحية «محمود سليمان» الذي أجلسه على الفور بابتسامة عريضة ووجه منير عارضًا عليه الضيافة على الفور، رفض حاتم فهو لا يريد شرب المزيد، هو في حقيقة الأمر مصاب بحالة

قرف، لكنه أصر على شرب القهوة معه، وما أن استقر الأمر وطلب محمود البوفيه دخل حاتم مباشرةً في الموضوع الذي أتى من أجله.

قائلاً: حتى لا أضيع وقتك الثمين، سأبدأ حديثي على الفور، منذ عدة أيام تنازلت مستشفاكم لطبيبة تدعى مريم مراد الأغا عن علاج مريض أطلقتم عليه (الحالة ج) والتي كانت تحت رعايتك ومباشرتك، وهي الآن بين أيدينا والمريض لم يتفوه بكلمة من يومها وأخيرًا خرج عن السيطرة، فهل لي ببعض المعلومات التي توصلتم لها خلال فترة علاجه؟

انكمشت ابتسامة الطبيب وانطفأ نور وجهه قائلاً:

- لا يحق لي البوح بأسرار أي من مرضاي.

ابتسم حاتم نصف ابتسامة ساخرة لا إرادية قائلاً باستغراب:

- أسرار؟! أنا طبيبه المسؤول عن علاجه ومساعدته على الاستشفاء، لا صحفي يبحث عن التشهير بمرض شخص.

في رد فعل عجيب وغريب نهض محمود من على كرسيه قائلاً بحدة وعجرفة «بما أنك طبيبه والمسؤول عن علاجه فلا حاجة لك عندي، ولا أنا عندي لك شيء

مفيد، نحن أخلينا مسؤوليتنا عنه وأنتم تسلمتموه» ثم انصرف هكذا تاركًا حاتم في حالة ذهول.

دقائق إضافية من الإحساس بإهدار الكرامة قفز بعدها حاتم من على كرسيه بحنق وإصرار أقوى من أي وقت مضى، فإن كان يشك في غرابة بعض الأمور فهو الآن بات متاكدًا.

عاد مرة أخرى لموظف الاستقبال طالبًا منه التحدث مع الإدارة، فقاده لمكتب مدام (عايدة).

مدام عايدة، ما إن تقف أمامها حتى تستشعر غضب الرب، تجلس على كرسي مكتب خشبي لا تفعل شيئًا غير فتح الكوتشينة بجدية شديدة، متشحة بالسواد، شك حاتم بأن الموظف أخطأ ودله على عنبر من العنابر، فأعاد النظر للوحة المكتوبة على الباب، نعم إنها الإدارة.

تقدم نحوها بوسامته وطلته المشرقة، فنّدته بنظراتها التي تجولت في كافة تفاصيله على طريقة مخبري أمن الدولة قائلةً بصوتها الأجش:

- أي خدمة يا أستاذ؟.

يؤمن حاتم أن الصدق هو أقصر طريق بين نقطتين أو هكذا كان.

بدأ حديثه بنبرة لطيفة:

ـ جئت أسأل عن مريض كان نزيلاً لديكم وغادر منذ بضعة أيام، تسلمته طبيبة تدعى مريم مراد الأغا على مسؤوليتها و...

قاطعته بلزاجة قائلةً:

ـ وبمَ أنك علمت أنه خرج من عندنا وتسلمته مستشفى أخرى لماذا لم تذهب إليها؟ ما شأننا به الآن؟

تمالك أعصابه قارطًا على أسنانه من الغيظ مستكملاً بنبرةٍ هادئة يفوح منها الغضب:

ـ إذا تركتِني أكمل حديثي فستعرفين غرضي.

صمتت مكرهةً فأكمل مستاءً:

ـ نواجه مشكلة للحديث معه ومعرفة أي تفاصيل تساعدنا في تحديد هويته، لذا فكرت في البحث عن الشخص الذي أودعه لديكم؛ بالتأكيد كان على صلة به ويعلم عنه الكثير، فهل لي بأي تفاصيل عنه؟ إذا سمحتِ؟

ردت بسماجة وبنظرة كيد بعدما تركته يفرغ طاقته:

ـ ليس مسموحٌ لي بالتفريط في معلومات تخص لا

نزلاء ولا غيرهم.

رغم العشرة القصيرة التي لم تتعد الدقائق، إلا أنه فطن للطريقة المثلى لإنهاء الحوار مع هذه النوعية مادًا في عمر كرامته الافتراضي، فتركها ورحل طاعنًا إياها بتعليق جعله يُقسم أنه أفضل من هدف مجدي عبد الغني في كأس العالم:

- أتعلمين يا أنثى الشيطان أنتِ! سوف يأتي اليوم الذي أودعك فيه بكلتا يدي هاتين في عنبر المختلين ووعدًا مني سيكون قريبًا.

ثم بعثر أوراق كوتشيناتها ورحل منتقمًا منتصرًا منتشيًا، تاركًا إياها في حالة ذهول لم تدم طويلاً، عائدةً لما كانت تفعله بتفانٍ وبلا إحساس.

• • •

لم تكن ليلة مريم سعيدة أيضًا، فبعد عشاء مساء أمس وسهرتها اللطيفة برفقة حاتم عادت لفيلتها التي تقطنها مع والدها، تطير من على الأرض كما لو كانت فتاة مراهقة.

كانت تؤرجح حقيبتها في الهواء وتدندن أنغام أغنية فرنسية رومانسية قبل أن تصطدم بأبيها الذي باغتها بظهوره المفاجئ من غرفة مكتبه قائلاً بحزم:

- أين كنتِ حتى الآن أيتها الطبيبة؟

ردت بتلعثم لم تتخلص منه أمامه منذ الطفولة وحتى عقدها الرابع:

- كـ... كنت في عشاء عمل مع الدكتور حاتم يا أبي، أاا، جيد أنك ما زلت مستيقظًا.

نظر لها باستياء ثم تركها ودخل غرفة مكتبه من جديد، هو يعلم تمامًا أنها ستلحق به وقد تم، لحقت به قائلة بنبرة ودودة فهو أباها الذي لم يتبق لها سواه:

- هل تسمح لي بالحديث معك لدقائق يا أبي؟

خفف الأب من حدته بهز رأسه بالموافقة، جالسًا على كرسي مكتبه الجلدي الضخم، يدعي الانشغال بالنظر في إحدى الكتب الطبية.

جلست أمامه قائلةً:

- لقد شعرت اليوم أن حضرتك متحامل كثيرًا عليّ في اجتماع الصباح، وقد اتخذت ضدي أنا ومريضي عدة قرارات.

كان على وشك أن يقاطعها، فالجدير بالذكر أن الدكتور مراد لا يفصل بين طبيعة شخصيته داخل المشفى وخارجها مع أي شخص ولا يتراجع عن قراراته

مهما كانت درجة اعتزازه به.

لكنها استكملت جملتها:

- أنا لا أراجعك في تلك القرارات يا أبي فأنا أعرفك جيدًا، لكن سؤالي لماذا تغيرت هكذا فجأة؟ لم يكن كل هذا الشحن بيننا من قبل، هل أخطأت في شيء دونما أدري أم أن هناك جديد لا أعرفه؟

أطال د. مراد النظر في كتابه، ليس للقرأة بل لاستشعاره مفارقة داخلية أربكته، ورغم أنه كان حريصًا ومجاهدًا في عدم ترك العنان لنفسه في الخروج عن السيطرة طيلة الفترة الماضية إلا في أضيق الحدود إلا أنه لا يعرف كيف أفلتت منه أعصابه صباح اليوم لمثل هذا الحد!

لا يمكن أن يعترف لها بذلك، فهيبته كأب وكبير أطباء لا تسمح له بالاعتراف واكتفى بقول:

- لو كان أي طبيب آخر مكانك لكنت اتخذت نفس القرارات ضده، فأنتِ على تمام اليقين أني رجلٌ عادل ولا أزكيكِ على أحد.

رفق نبرته قليلاً ناظرًا إليها بحنو الأب:

- إن كنت قسوت عليك فتلك قسوة المحب حتى

تطوري من نفسك وتتفادي أخطاءك في المستقبل، إذا لم أفعل ذلك الآن فقد تورطين نفسك تمامًا كما فعلتِ في حالة سيلا، أنا لا أخشى أن تتفوقي عليّ كما تظنين دائمًا فأنتِ ابنتي، ولكن أخشى عليكِ التورط فيما لا تقدرين عليه بعد.

كانت جملته الأخيرة تحمل نبرة هدوء ممتزجة بمكر شعرت به مريم على الفور، فبهتت نظرتها لأنها تعلم تلك النبرة التي يتحول فيها مضمون الكلام عن مساره الصحيح، ولكنها لن تناقشه ولن تفتح معه الموضوع لما له من تأثير سيء على كلاهما.

فضلت أيضًا أن تنهي الحوار وأن تترك تشككها في طبيعة تحول الدكتور مراد التي لاحظتها منذ مدة بشكل طفيف حتى تنتهي من مأزق الحالة أنونيم.

قالت متلطفة:

- مهما بلغت من العلم يا أبي فلا يمكنني تخطي عقلية كعقلية دكتور مراد الأغا.

ثم تقدمت نحوه وقبلته على جبينه وأوصته بعدم السهر كثيرًا، وغادرت لغرفتها للخلود إلى النوم.

• • •

مع دقات منبهها في الصباح الباكر -وأهم صباح لها على الإطلاق- استيقظت مفعمة بالنشاط والسعادة والأمل، دخلت على الفور حمام غرفتها لتستعد لأخذ حمام منعش، لا تؤمن فتاتنا كثيرًا بالفأل كحاتم، ولكنها لا تحب تعطيل مسيرة الأمور فذلك يربكها ويقلل من حماسها وحيويتها لاستنفاذه الكثير من طاقتها الإيجابية.

وعلى غير المعتاد وجدت المياة مقطوعة، تأففت كثيرًا؛ فحرمانها من حمامها الصباحي سيفقدها الكثير من ثقتها في نفسها كأنثى ويعكر عليها صفو مزاجها طيلة اليوم.

حاولت البحث في الأسباب لعله شيء في الصنبور ولا جدوى، اضطرت لارتداء ملابسها كي لا تتأخر وهي في أقصى مراحل الاختناق والشعور بعدم الراحة، نزلت لتناول الفطور والقهوة كالعادة لتستفيق، لم تجد الخادمة قد أعدت شيئًا فصرخت عليها بغضب.

فمن يعرف مريم يعرف أنها تحب النظام والانضباط، فللإفطار موعد وللغذاء موعد وكذلك العشاء، ولا تقبل تباطؤًا ولا تقبل تغييرًا في نظامها اليومي إلا بتنسيق مسبق، وبناءً على هذا فهي لا تحب المفاجآت أيضًا، صرخت عليها ولا مجيب، دخلت المطبخ فلم تجدها

ولا في الطابقين العلوي ولا السفلي ولا في أي مكان، خرجت للحديقة ونادت عم (شندي) الجنايني وسألته عنها، فقال أنها رحلت بالأمس عقب خروجها مع حاتم ولم تعد.

نفخت متأففة من هذا العك الصباحي، متوجهة لسيارتها التي وجدت عجلاتها الأربعة نائمة، فاشتعلت غضبًا ونادت عم شندي مرة أخرى تسأله متى وكيف حدث هذا؟ فلم يجد الرجل ما يجيب به.

تركته ورحلت، استوقفت سيارة أجرة وانطلقت للمشفى، فلا حمامًا ولا إفطارًا ولا سيارة، إنه حقًا أجمل أيام حياتها على الإطلاق، صفر طاقة، صفر إيجابية.

(ما إن تبدأ أولى الأمور بمضايقتك وتهيئ لها نفسك بالتشاؤم حتمًا ستتحد بقية الظروف ضدك كأنها تلقنك درسًا كي لا تستسلم أبدًا لطاقتك السلبية مرة أخرى)

وصلت أخيرًا بعد أزمة مرورية طاحنة على الطريق الصحراوي بسبب حادث انقلاب عربة نقل، مستقبلةً يومها البديع بتقرير مدام وفاء رئيسة قسم التمريض عن وضع الحالة أنونيم طيلة ليلة أمس مبلغةً إياها أن هناك تغييرات يجب أن تراها حدثت.

قالت بغضب وخوف وهي تصعد بالمصعد للطابق

الثالث «هل آذى المريض نفسه مرة أخرى؟»، قالت وفاء «لا، اطمئني، التغييرات للغرفة وليست للمريض» بالفعل اطمأنت قليلاً.

وصلا للطابق الثالث، توجهت للغرفة 103، مرت على الغرفة ولم تميزها، استوقفتها مدام وفاء أن تلك هي الغرفة 103، اندهشت كثيرًا فقد تغير لون بابها، تدخلت حنان الممرضة بالشرح أن عُمالاً أتوا في المساء لتنفيذ تلك التغييرات بأوامر من د. مراد الأغا.

دخلت الطبيبة من الباب الأول متوجهةً للحائط الزجاجي لمعاينة المريض من بعيد قبل مواجهته مباشرةً، فوجدت أن الزجاج أصبح معتمًا ولا يعكس الرؤية، وقبل أن تسأل تلك المرة أيضًا ردت الممرضة بنفس الرد أنها كانت إحدى أوامر الدكتور مراد.

استاءت مريم من تلك التصرفات التي ستصعب عليها العمل، واعتبرتها منافسة غير شريفة منه، فهو يحاول إفساد الأمر بشكل غير مباشر، نهرت الممرضة:

- لماذا لم يتصل بي أحد أو بالدكتور حاتم ويخبره بما حدث في لحظتها؟

قالت الممرضة الخائفة:

- لقد ظننا أن والد حضرتك أبلغك بقراراته في

المنزل، حيث أنه أرسل العمال في وقت متأخر.

صمتت مريم، فعتاب الممرضة لن يجدي.

تقدم حارس الأمن والممرضين، كان كل شيء على ما يرام والمريض ممدد على سريره في حالة هدوء، فحصته وتأكدت من محاليله ونبضه وكل شيء.

وقبل أن تغادر استوقفتها حنان هامسة في أذنها في غفلة من مدام وفاء:

- دكتورة، هناك شيء يجب أن ترينه بعيدًا عن مدام وفاء.

تعجبت مريم من هذا الطلب وأذنت لها بملاحقتها لمكتبها بعد قليل.

كانت توزع التحيات والابتسامات الرقيقة وهي في طريقها لمكتبها بوجه بشوش ملائكي، بينما كان صدرها يغلي من الداخل من الحنق، كيف يفعل والدها ذلك؟ ألا يكفيه تلك القرارات الحمقاء! ولماذا لم يبلغها بالأمس؟

وما إن دخلت مكتبها حتى انطفأت ابتسامتها مغلقةً الباب بعنف من شدة الغيظ.

ولكنها لاحظت شيئًا غريبًا؛ جهاز يشبه شاشة الكمبيوتر أعلى طاولةٍ بجوار مكتبها، اقتربت لتكتشف

أنها أحدث شاشات المراقبة حتى الآن، رأت مثلها في باريس، والأغرب أنها تراقب فقط غرفة الحالة أنونيم، كل شبر في الغرفة والحمام.

ارتسمت علامات الاستفهام على وجهها، وبتفكير غير عميق شكت أنه فعل حاتم ولكنها استبعدت ذلك وقتيًا، وتأكدت أن الفاعل هو والدها!

أعادت النظر في الشاشة وحملقت في المريض النائم بعمق، لعلها المرة الأولى العميقة، كان هادئًا مستكينًا كما أن وسامته لم يخفِها كل هذا الإرهاق والإهمال في مظهره.

قالت في نفسها قد تكون لفتة طيبة أو أنني أنا الطيبة، ولكنها شعرت بالندم على سوء الظن على كل حال، يا ترى ما السبب وراء هذا التصرف يا دكتور مراد؟

خرجت متوجهةً لمكتبه ولم يكن قد وصل حتى تلك اللحظة التي طرقت فيها بابه ولم يرد، ولم تجد مانع من الدخول على كل حال وانتظاره بالداخل.

جلست في البداية على الكراسي الأمامية للمكتب، وما إن ملّت حتى قامت وتجولت قليلاً حول المكتب، تتطلع بفضول على محتوياته، جلست على كرسي

المدير، شعرت بنشوة الرئاسة وتخيلت نفسها المديرة لبضع ثوان فتعاظمت في جلستها، دخل الدكتور مراد بغتة ففزعت وفزع أكثر منها، نهرها بقسوة مفرطة آمرًا إياها بالابتعاد عن مكتبه في الحال.

انتفضت من على الكرسي في حالة ذهول من كل هذا الكم من الغضب، لاحظ د. مراد خروجه الزائد عن شعوره فلم يجد طريقة للخروج من هذا الموقف السيء سوى أن يضحك بعد لحظات مريرة من التوتر شملت الجانبين قائلاً:

- أفزعتك؟

تعجبت من ضحكته في البداية ثم هدأت بعدما اقتنعت أنها كانت دعابة، دعابة ثقيلة ولكن من الجيد أنها دعابة أيًا كان وزنها.

قال د. مراد بنبرة مرحة وضحكات مصطنعة متقدمًا نحو مكتبه الذي ابتعدت عنه أمتارًا:

- لو أني فقط مديرك لكنت واجهتِ حسمًا من راتبك ولكن سأعفو عنك.

ردت في خجل:

- أعتذر يا دكتور مراد لم أقصد استباحة مكتبك،

اعذرني فأنا لا أنسى أبدًا أنك والدي.

تجمدت الابتسامة على وجهه، كان لجملتها الأخيرة وقعًا مؤلمًا على قلبه.

تنهد قائلاً بحنو الأب المعهود:

- دعيني أخبرك شيئًا، قد تظنين دائمًا أنني ضدك، لكن يومًا ما ستعلمين أن كل ما فعلته وسأفعله، بإرادتي أو رغمًا عني، هو في صالحك حتى وإن بدا مني أو لكِ غير ذلك.

صمتت طويلاً تحاول تفنيد كلماته التي تبدو بسيطة، صمت هو أيضًا لمنحها تلك الفرصة، فقد اعتادت ألا تأخذ عبارات الدكتور مراد بسطحية، وأن وراء مجرد الكلمة معانٍ كثيرة.

وكعادته لا يمنح الفرص كثيرًا قاطعًا الصمت بقوله:

- لا أشك أبدًا أنك أسأتِ الظن بي حينما رأيتِ تعديلاتي على غرفة مريضك، ثم سرعان ما ندمتِ على هذا الشك ريثما رأيتِ شاشة المراقبة في مكتبك، كما أعلم تمامًا أن الذي جاء بك إلى هنا ليس شكري وإنما أسئلتك التي تحوم في رأسك حول سبب ما فعلت.

كانت على وشك النطق لكنه باغتها قائلاً:

- هذا لأنك لا تثقين بأبيكِ، تعيشين جو المؤامرة طيلة حياتك تجاهي وتجاه كل الناس، تظنين أن كل الخلائق سُخِرت لأذيتك والوقوف في طريقك حتى أقرب الناس إليكِ، وتلك أعراض مَرضية يجب أن تحذري منها أيتها الطبيبة» قال جملته الأخيرة وهو ينهض متجهًا نحو ثلاجة مكتبه الصغيرة.

نظرت للأرض؛ تلك لحظة تفكير، ثم رفعت عينيها قائلةً بثبات الواثق:

- كلنا مرضى حضرة المدير، ولأني طبيبة نفسية وأعلم جيدًا خبايا النفس البشرية المتقلبة والمعقدة بما يكفي لعدم توقعها فأنا أضع في حسباني كل الاحتمالات، فلقد شاهدت في هذا العالم أفعالاً كانت يفترض أن تكون من الخوارق وباتت تحدث بكل بساطة، أُمًا تقتل أولادها والعكس، أخًا يخون أخاه، ونفوس تنقلب لأتفه الأزمات النفسية وتتحول لوحوش، ولو كان مرضي هو الشك ولو أني أدعوه حذر فهو من أصدق الأمراض وأرحمها، أرحم ألف مرة من الخيانة.

عقب كلمتها الأخيرة كان الدكتور مراد قد أخرج زجاجة مياه معدنية صغيرة ورفعها على فمه ليشرب.

قال بمرارة بادية بوضوح ونظرة عتاب تفيض بالحزن لما آل إليه تفكير ابنته الوحيدة:

- إن الموت لأهون عندي من أن أرى نظرات الاتهام في عينيك، أعترف أني تحاملت في قراراتي عليكِ، وأعترف أن كبريائي حتى الآن يمنعني من العدول عنها، لكن حبي لابنتي الوحيدة دفعني للغش.

أمام نظرتها المستغربة أكمل:

- نعم، الغش، تلك الكاميرا التي تعلمين أنها متطورة ابتعتها من أجل متابعة إحدى حالاتي المهمة ولكني آثرتك وزرعتها في غرفة مريضك، فلا حاجة لك بعد الآن للمراقبة الضعيفة والسطحية، يمكنكِ مباشرة كل حركة من مكتبك بدقة عالية، بالإضافة لكاميرات الممرات العادية، كل هذا لصالحك ولصالح المريض.

نظر إليها معاتبًا:

- أثبتُ نفسي على قسوتي، فقسوتِ عليّ بالظن.

بلا شك شعرت بخجل مضاعف، هي لم ترحم كبرياءه كأب وطبيب كبير، قد يخطئ في اتخاذ بعض القرارات ولكنه يجد صعوبة في التراجع عنها، فيفقد هيبته وكرامته ويُتهم بالمحاباة، فهو لم يتراجع في أي عقاب ألحقه بأي مخطئ من قبل، ومن الصعب بل المستحيل أن يحيد عن عدالته تلك حتى وإن كانت ظالمة.

اعتذرت لأبيها وفرت من مقلتيها دمعات الندم واستأذنته للانصراف بعدما تأكدت أنه بخير تمامًا وأنه سامحها على سوء ظنها.

أغلقت باب مكتبه وتوانٍ وأعادت خيوط الشك نسج نفسها على قلبها، فهي مؤمنة بوجود الخيانة في عقل وقلب كل إنسان، وأن ظنها مهما كان غير منطقي ولا مقبول إلا إنه يلامس الحقيقة بقوة أو بضعف، فهي تثق بحدسها لأبعد الحدود.

فمن منا ليس بخائن؟ حتى وإن لم تكن خيانة جسدية أو ذهنية أو مؤامرة حقيقية؟!

أنت خائن!

خنت ألف مرة مع كل ضحكة في وجه أخيك وأنت تبغضه، مع كل كلمة نفاق تعلم أنها زائفة أسميتها

مجاملات، مع كل وعد خلفته ووعدته وأنت على يقين أنك ستخلفه، مع كل ظهر طعنته بقول أو فعل وكل قلب جرحته، خنت ثقة أهلك مع أول كذبة، وأحبائك مع أول هجران، وأصدقائك بغيرةٍ كتمتها في قلبك، وعداوات خلقتها قبل سماع دفاع المتهم، وأحكام أصدرتها لمجرد أنك سمعت ولم تتحقق، خنت نفسك مرارًا بتنزيهها عن الخطأ والمكابرة والتكبر.

خنت وخانوك الناس، اختلفت الأشكال، اختلفت المسميات أو حتى الطرق، كلها في النهاية عدة أوجه للخيانة.

• • •

الحرية؛ ليست شعورًا أو إحساسًا ولا حتى رغبة، بل هي فطرة فطرت عليها كافة المخلوقات؛ إنسان أو حيوان، الجميع يسعى دائمًا للحرية، يتمناها، ينشدها ويحارب من أجلها، لكن لا يدركها، لأن الفطرة مهما كانت سليمة ونقية فهناك دائمًا عوامل تتراكم ستلوثها وقيود ستكبلها، أولها هذا الجسد الذي يقف حائلاً بين الروح وفطرتها، هذه الأجساد هي شكل من أشكال العبودية.

أنت عبد جسدك، تنصاع وتنقاد لرغباته وشهواته، ثم

تنقاد خلف رغبات الأجساد الأخرى، ثم تسقط في نهاية الأمر أسيرًا للمتاح ولن تملك حق الاختيار إلا في حدود المعروض -أيضًا- من قبل الآخرين.

كفطرة الإيمان بالله الواحد، ثم تتدخل العوامل فيرتاب الناس، فتتلوث الفطرة، فيختار الإنسان ما بين الكفر والإيمان حيث لا ثالث لهما، ثم يختار الكافر إله من الآلهة ويختار المؤمن دين من الأديان، ثم يتم توريثه لمن بعدهم وقد اعتقد كل واحد منهم أنه كان حرًا يوم أن اختار.

هذه الأجساد هي العدو الأول للروح وهي القيد الذي لا ينفك إلا بالموت، الموت الذي يعتبره الأغبياء نهاية الحرية، تلك الحرية الزائفة المكبلة بالأجساد، هو في الحقيقة المخلص الوحيد للروح من عبوديتها الملحدة لكل ما هو فان.

زلزل التصفيق القاعة عقب انتهاء (ميسرة) من شرح المعنى العميق للوحتها التعبيرية في إحدى الجلسات الفنية بـ (زينب خاتون)، فيها تصور شخص يقف عاريًا إلا من عورته مصلوبٌ في الهواء صلب وهمي مغطى بالجروح، تحيط به أذرع وكفوف لأشخاص متوارين خلف جسده، عَصبت عينيه وكَممت فمه وأطبقت على عنقه، كبلت قدميه وكامل جسده، يظهر من خلفهم

جميعًا أفعى كبيرة عملاقة رمزت بها للموت الذي يبدو بشعًا في عيون الناس ولكنه المخلص، حيث يتجلى من خلف تلك الأفعى طاقة نور شديدة الإضاءة تسبح فيها أرواح المُحررين بحرية وسعادة.

كان مصطفى أكثر الحضور المستجدين على المكان انبهارًا باللوحة وصاحبة اللوحة التي أخذ يتأمل مظهرها وأسلوبها في الإلقاء والعرض، لامست اتجاهاته الروحانية بقوة، متخيلاً ما قد تكون شعرت به أمه وهي تحتضر وقد خفف ذلك التخيل من وجعه عليها قليلاً، وها قد انتهى دورها وتقدم شخص آخر بلوحته، مرت بجواره مباشرة عائدة لطاولتها.

أدار رأسه نحوها، منبهرًا بهذا التكوين الجسدي والشكلي، ليس انبهار رجل بامرأة ولكن فنان بشيء جميل، في تلك اللحظة نظرت هي الأخرى نحوه، نحو الشخص الذي كان لها مألوفًا معروفًا، تقدمت نحوه بثقة ملقية عليه التحية: كيف حالك يا مصطفى؟

استغرب معرفتها به فسألها على استحياء: أتعرفينني؟

قالت: نعم، أنت زميلي في كلية الفنون الجميلة، أراك دائمًا منطويًا لا تحادث أحدًا، ولكنها فرصة سعيدة أن

أراك اليوم (ثم ملأت قلبه بابتسامتها الساحرة، ثم بدا كأنه يفقد الوعي)

تحولت الرؤية مرة أخرى لضبابية وصوت من خلف هذا الضباب بدأ كصدى صوت ثم أوضح فأوضح، انقشع الضباب تدريجيًا واجدًا نفسه مسجي على سرير ومكمم بجهاز تنفس اصطناعي، حوله على ما يبدو ممرضات وأطباء، لا يميز ملامحهم حتى الآن بوضوح، قال أحدهم :

- جيد يا جماعة هو الآن مستقر تمامًا، فلتخبروا الدكتور نزيه بسرعة.

دقيقة على الأكثر وتقدم منه رجل خمسيني، تبدو عليه هيبة الأطباء، خفيف الشعر من المنتصف، أبيض اللون مشرب بالحمرة، تفقد نبضه وأشياء أخرى، وابتسم مهنئًا زملاءه ومساعديه فتجلت أسنانه العاجية في اللحظة التي استعاد فيها مصطفى وعيه واحتد بصره.

• • •

أوشك حاتم على مغادرة هذا المكان العفن متأففًا، معفرًا مغبرًا، وفي طريق الخروج رأى نفس المريض مجددًا يشير له على نفس الشرفة مرة أخرى، رفع

حاتم رأسه ناظرًا إليها وقد خُيل إليه -للحظة- أن شخصًا ما كان واقفًا فيها واختفى.

هو يعلم بداية اليوم لذا لن يندهش كثيرًا، خرج من باب تلك المصحة حاملاً همّ مريم التي تنتظر منه الكثير، ركب سيارته وما إن استعد للانطلاق فإذا بوجه يلتصق كالذبابة على زجاجها.

كاد أن يتسبب بجلطة دماغية لحاتم الذي ما عاد يحتمل المزيد من الأكشن، بعد شهقة مكتومة وعدة أنفاس التقطها فتح زجاج الشباك.

ثوانٍ تعرف خلالها على طبيعة هذا الكائن، إنه نفس الشاب عامل الكافيتريا.

قال له حاتم باغتياظ مكتوم: «كيف غابوا عنك تاركينك هكذا ترعى وتنمو بين الأصحاء؟ ماذا تريد؟» ختم سؤاله الأخير بغضب.

ضحكة بلهاء تنم عن شخصية معتادة على الإهانة، قائلاً وهو يشد نفسًا من سيجارته المحلية ويحك أنفه:

- مقبولة منك أيها الطبيب، أردت فقط عرض خدماتي.

حاتم: أي خدمات تلك؟

الشاب: لقد رأيت دخولك الذي شابه خروجك ويبدو أن غرضك لم يُقضَ، صحيح؟

تعجب حاتم من فطنة هذا اللزج قائلاً: صحيح؟

ابتسم الشاب مرة أخرى بزهو ونفسٍ آخر من السيجارة مُضيقًا عينيه: أستطيع خدمتك حسب المقابل.

عض حاتم على شفته السفلى بالعليا ناظرًا أمامه يفكر، ثم أومأ بالموافقة، فالتفَّ الشاب على الفور حول السيارة وجلس بجوار حاتم قائلاً له:

- دعنا نتحدث بعيدًا عن هنا حتى لا يرانا أحد، فلدي شيء متأكد أنك ستود رؤيته.

انطلق حاتم بالسيارة وقاده الشاب لقهوة الست متاعب.

• • •

قهوة متاعب

مقهى شعبي جدًا في أحد الأحياء المهجورة بحلوان، يضم كوكبة من البلطجية والمدمنين أو هكذا تبدو هيأتهم، يتزعمه امرأة غريبة جدًا من وجهة نظر حاتم.

سيدة ممتلئة قليلاً صلبة القوام بالرغم من ذلك وتبدو ذات قدرة بدنية لا بأس بها، تبدو في بداية الخمسينيات، ترتدي جلبابًا مزركشًا بالورود والكثير من الغوايش في كلتا ذراعيها، سمراء بعيون زرقاء كحيلة، ملامحها جيدة تدل على جمال أخّاذ في الصبا بالرغم من هذا التكوين العشوائي شديد المحلية، تجلس الست متاعب تراقب الجميع لا تفارق النرجيلة (أي الشيشة بالعامية) يدها، وإذا حدثت معركة أو مشادة بين أحد مريديها فهي كفيلة بتلقينهم علقة ساخنة جزاءً لهم.

يبدو أن هذا الشاب ذو علاقة وطيدة بها، رحبت به بشدة متفحصة الضيف الجديد قائلة لصبيها «طلبات الدكتور عماد وضيوفه على حساب القهوة، وضعهم في عينيك يا ولد»

ضحك حاتم بلا صوت ناظرًا لهذا العماد مهنئًا إياه على حصوله على درجة الدكتوراة، قال له عماد بجدية

للعلم بالشيء أنه حاصل على دبلوم التمريض لكنه لا يمارس المهنة منذ أشهر قليلة حيث وجد دخل الكافيتريا أفضل من التمريض ومتاعبه.

رغم اختلاف الهدف بينهما إلا أن حاتم كان يتمنى لو أنه ترك مهنته مثلما فعل هذا العماد ليمارس المهنة التي يحب ألا وهي التصوير، ولكنه فعليًا لا يملك جرأة هذا الشاب.

وبعد أن جلسا على طاولة جانبية بعيدة عن الضوضاء سأله حاتم:

- أخبرني الآن هل ستستطيع مساعدتي؟ لقد طلبت مني الصبر لحين الوصول وها قد وصلنا؟

رد عماد الذي حضرت نرجيلته وبدأ بتحميتها والتقاط عدة أنفاس قائلاً:

- يااااه يا دكتور، لقد وضعت نفسك في مأزقٍ صعب، ولكنها ستقضى بإذن الله.

تساءل حاتم: لماذا هو مأزق؟

ترك عماد النرجيلة بنظرة قلقة: «السهل في الموضوع أني أعرف من أتى بهذا المريض» فابتهج حاتم فهذا جل ما يريد.

أكمل عماد: أما الصعب في الموضوع أني لن أستطع مساعدتك لا أنا ولا غيري.

انتفض حاتم من على كرسيه خارجًا عن شعوره بشكل غير محسوب، وانقض قابضًا على رقبته صارخًا فيه:

ـ أتتلاعب بي أيها الخسيس الغشاش؟

ساد الصمت على المكان وانتبهوا جميعًا نحوه، وقفت القهوة كلها على قدم واحدة، وتقدمت متاعب بلا تفكير نحو حاتم تعاركه، أمسكت إحدى يديه وطوتها خلف ظهره، في اللحظة ذاتها استوقفها عماد طالبًا من الدكتور الهدوء فهو لم يكمل كلامه بعد.

هدأ حاتم على مضض وأفلتته متاعب وما كادت لتفعل.

أجلسه عماد وصرخ في البقية:

ـ اجلسوا يا جماعة وليلتهِ كل واحدٍ في نفسه، لا يوجد شيء هنا للمشاهدة.

طلب من حاتم أن يهدأ ويصلي على النبي فهو لم يكمل ما ابتدأه بعد، أخذ ثوانٍ يُعدِل فيها ملابسه وتسريحة شعره قائلاً:

- لقد قطعت حبل أفكاري بهجمتك تلك لذا سأضطر لإعادة كلامي من البداية.

مسح حاتم على وجهه مستدعيًا المزيد من الصبر، مضطرًا لتحمل هذا الكتلة.

قال عماد بصوت منخفض مقتربًا منه:

- السهل في الموضوع...

قاطعه حاتم بلكمة في كتفه قائلاً بغضب مكتوم:

- اختصر.

ارتد للخلف ثم اقترب عائدًا إليه رشده على ما يبدو مستكملاً كأن شيئًا لم يكن:

- أما الصعب في الموضوع أني لن أستطع مساعدتك لا أنا ولا غيري إلا بمساعدة الست متاعب.

رفع حاجبيه متعجبًا:

- الست متاعب؟ وما شأنها بالموضوع؟

قال: سأروي لك كل شيء بالتفصيل منذ أتى هذا المريض وحتى رحل، وشأن الست متاعب.

• • •

يروي عماد أن هذا المريض المذكور قد حضر برفقة رجل متوسط العمر على حسب تقديره، هذا الرجل ليس بغريب بل صديق شخصي للدكتور محمود سليمان يدعى الدكتور نزيه شمس الدين، مكث هذا الشاب المريض حوالي ستة أشهر معزولاً في غرفةٍ بمفرده، رأوا منه وسمعوا خلال تلك الفترة أهوالًا وأهوالًا.

كان يتنبأ بأشياء وتحدث، أولها تنبئه بانتحار إحدى الحالات التي كانت قد تحسنت، ولم يصدقه طبيبه في البداية، وآخرها وفاة أخو مدام عايدة الكبير في حادث سير، وكان إذا غضب من أحد ناله شر، حتى اعتقد البعض فيه أنه ممسوس بمس شيطاني أو أنه هو الشيطان ذاته، وغرفته خاوية حتى الآن يخشى الجميع الاقتراب منها؛ يقولون أنها ملعونة.

بعدها حاول البعض استغلاله وكلما حاولوا مسهم شر، وأول من فكرت في استغلاله هي مدام عايدة، في جعله يقرأ لها الطالع ولصديقاتها، ومن بعدها حلت عليها المصائب والأمراض فلم تكن توأمًا للبومة في السابق بل كانت امرأة بهية بشوشة، فقررت الاستعانة بالست متاعب لعمل زار لطرد شياطينه عنها ولكنها فشلت وزادت حالتها سوءًا.

حتى الدكتور محمود سليمان لم يسلم من لعنته وتنبأ له بهجران زوجته التي يعشقها له، فقرر أن يخضعه لجلسات الصدمات الكهربائية بشكل مكثف، فألقى عليه تعويذة حولته لرجل عجوز احتل الشيب وجهه، صار كهلاً لا شابًا في منتصف الأربعينيات كما رأيت.

فقرروا تسريحه لمشفى أخرى بسبب عدم سداد الفواتير ولكن تلك أكذوبة نسجوها، والحقيقة أنهم أرادوا التخلص منه ومن شره، وأعطوه لطبيبة فاتنة تدعى مريم.

وعندما أتى بعدها الدكتور نزيه شمس الدين الذي أودعه المستشفى أول مرة يسأل عنه سمعت الدكتور محمود يقول له أن المريض هرب ولا يعرفون طريقه.

سأله حاتم: وهل تعرف عنوان هذا الطبيب أو مكان عمله؟ واسم هذا المريض؟

قال: لا، لا أعرف طريقه، لكن متاعب يمكنها ذلك فهي صديقة مدام عايدة المقربة، ولكني سمعت الدكتور محمود ذات مرة يقول له: «سأنتظرك يا دكتور في الهرم أمام المستشفى، لعلها المستشفى التي يعمل بها»

تعجب حاتم مستنكرًا:

- ألم تقل منذ قليل أنه كان يتنبأ؟ أي كان يتكلم، ألم يقل شيئًا أو يذكر اسمًا أو أيًا كان يدل على شخصيته؟

- نعم كان يتنبأ، لكن ليس بالكلام، بل بالرسم الذي تمتلئ به جدران غرفته.

علق مذهولاً:

- الرسم؟ أحتاج لرؤية تلك الغرفة.

عماد منتشيًا بثقة:

- هذا هو الشيء الذي كنت على يقين أنك ستود رؤيته.

• • •

لم تمر دقائق طويلة على وصول مريم لمكتبها حتى لحقت بها حنان متجردةً من زي العمل فقد انتهت للتو من مناوبتها المسائية وسوف تعود مجددًا في تمام الحادية عشرة مساءً.

أخرجت من حقيبتها بضع وريقات ممزقة وناولتها لمريم، سألتها:

ـ ما هذا؟

قالت: إنها ليلة أمس، ليلة أن هبط العمال لتنفيذ تغييرات الغرفة، كان لابد من نقل المريض لحين الانتهاء من عملهم، كان نائمًا، نقلناه بسريره المتحرك لغرفة تغيير ملابس الممرضات وخرجنا جميعًا مطمئنين كونه مقيدًا في السرير كما هو، وما أن انتهى العمال من عملهم عدتُ أنا والدكتور ناير لإرجاعه فوجدنا القيد مفكوك والمريض في حالة تخشب وبجانبه تلك الوريقات.

(كانت وريقات من دفاتر المتابعة الخاصة بالممرضات وبالتأكيد يوجد الكثير منها في غرفتهم)

قلبت في تلك الوريقات التي كانت ممزقة وسألتها عن سبب التمزيق: هل مزقها المريض؟

ترددت الممرضة في الرد وبدا عليها التوتر الشديد ثم قالت: بـ، بل، مدام وفاء.

اتسعت عينا مريم في اندهاش مستغربة:

ـ ولماذا فعلت؟

ـ كل ما قالته أن مزقوا تلك الوريقات عديمة الجدوى وألا تخبروا الطبيبة بشيء وإلا تعرضتم

للعقاب.

أومأت مريم برأسها وأذنت لحنان بالرحيل واعدةً إياها بكتمان السر وعدم إظهار تلك الوريقات كي لا تعلم وفاء.

رحلت الممرضة وجلست مريم تفكر لمَ عساها أن تفعل؟ هل وفاء تعمل لصالح أباها وتحاول تخريب متابعة الحالة؟ أو لعلها هي من فك قيده أيضًا؟

حاولت تجميع الوريقات الممزقة لتكوين شيء مفهوم، تبدو رسمة، لكنها تفتقد التركيز بعد كل تلك الأحداث، تركت الوريقات جانبًا وأخذت تتابع المريض النائم في سكون عجيب.

شعرت أنها غير قادرة على التركيز نهائيًا لأنها ببساطة لم تستحم، قررت أنها ستفعل ما لم تكن تتوقع أن تفعله يومًا، استخدام إحدى الغرف الشاغرة في المستشفى وأخذ حمام سريع كي تشعر بوجودها من جديد.

أخفت الوريقات أسفل مكتبها وانصرفت تبحث عن غرفة شاغرة في سرية وكتمان.

• • •

مر يومان على تحسن حالة مصطفى الصحية بعد إنعاش قلبه الذي توقف، كانت معجزة حقيقة، هو الآن في وضع صحي جيد لاسيما من بعض الكسور في القدم اليسرى والذراع اليمنى وبعض الجروح والسحجات القوية والكدمات، تعتبر تلك نتيجة جيدة لحادث مؤلم كانهيار عقار على رأس أحدهم.

دخل الدكتور نزيه بصحبة ممرضته مبتسمًا، كان مصطفى مستفيقًا، نظر له نزيه بابتهاج غريب فهذا الشاب ملامحه الجميلة تتشابه بنسبة كبيرة مع ملامح ابنه المتوفى تقريبًا في نفس عمره منذ 3 سنوات.

سأله الطبيب عن حاله فأومأ برأسه أنه بخير، سأله عن اسمه فلم يجب، سأله عمَّا إذا كان يتذكر أي شيء مما حدث له أو قبلها أو بعدها؟ فأومأ أنْ لا.

انكمشت ابتسامة نزيه فهذا دليل على فقد المريض للذاكرة.

لم يأتِ أحد للسؤال عنه ولم يظهر له أهل أو أصدقاء أو حتى جيران منذ أسبوع، فلم يتردد نزيه في تسديد فاتورته للمستشفى كصدقة على روح ابنه.

فكر أيضًا أن يستفسر من المسعفين عن العنوان الذي أحضروه منه فدلوه على عنوان العقار المنهار،

بالفعل ذهب للتقصي عن أي معلومات، لكن المفاجأة كانت أنه لا أحد يعرف عنه شيئًا، حتى صاحب المنزل الذي استأجره المنزل مسافر خارج مصر تلك الفترة، وعده أحد الجيران أن يخبره فور وصوله.

يومان آخران مرًا، وأصبح وجوده في المشفى غير ضروري، فلم يجد بُدًا من أخذه معه لمنزله لاستكمال مرحلة النقاهة.

عاش مصطفى بصحبة نزيه قرابة شهر من الألفة والمحبة، يطعمه ويراعيه ويعطيه العلاج، أقنع نفسه أنه عوض ابنه المفقود.

• • •

حوالي ساعتان مرت على غياب مريم عن مكتبها، لم يكن التسلل لإحدى الغرف دون ملاحظة أحد من الممرضين أو الأطباء للاستحمام بالأمر الهين، ولا فكرة خلع ملابسها خارج المنزل أيضًا.

عادت منتعشة كاملة التركيز، مستفيقةً لمتابعة مريضها، رائقة المزاج لدرجة أنها لم تنهر ذلك العامل الذي كان يقف بالقرب من باب مكتبها يكنس الأرض بفوضوية، يبدو أنه جديد وأخرق.

عادت للشاشات ولكن!!

الشاشات مغلقة!!

كيف هذا؟ هل استباح أحدهم مكتبها وتجرأ على القيام بغلق شاشة المراقبة؟

أعادت فتحها من جديد لتفاجأ أن المريض قد اختفى!!

هنا صرخت مفزوعة ومصدومة كيف حدث ذلك؟

هرعت للطابق الثالث الغرفة 103، فتحت الباب بكل قوة لتجد المريض مسجى على سريره في وضعه السابق!

وقفت وهي لا تعلم ما هذا أو كيف؟!

ركضت هيام ممرضة هذه المناوبة فور رؤيتها لها تدخل الغرفة بهذا الشكل قائلةً بقلق:

- هل حدث مكروه يا دكتورة؟

ظلت مريم واقفةً لا تدري بماذا تجيب أو لعلها لم تسمعها من الأساس، ثم قالت بهبوط شديد:

- لا شيء، لا شيء.

خرجت موصدة الباب في حالة سهاد، دب الخوف الصامت في أعماق نفسها، هي الآن تحتاج حاتم،

تحتاجه حالًا كطفلٍ فاقد أباه.

عادت لمكتبها، عادت تنظر عبر الشاشة، عاد كل شيء طبيعي؛ المريض نائم نومة طويلة على غير المعتاد، قررت أنه بمجرد وصول حاتم ستستفيقه عنوة.

رن جرس هاتف المكتب فجأة، انتفضت، رفعت السماعة على الفور قائلةً بيقين:حاتم؟

حاتم: مريم، كيف حالك؟

مريم: لست بخير.

حاتم: ماذا بكِ؟

مريم: أحتاجك.

حاتم: في الطريق إليكِ.

• • •

كان يحادثها من منزله، عاد لأخذ حمام سريع والتحضر لمشوار آخر وأخطر، لكنه شعر بالقلق الشديد من نبرتها، يا ترى ماذا حدث؟

جلس قليلاً يفكر في المأزق الذي وُضع فيه، كان قد رتب لقاءً مع عماد في المساء ليمكنه من التسلل للغرفة

المحظورة، ثم جاء صوت مريم المنكسر المقلق ليقلب كيانه، لم يطل التفكير وقرر تأجيل ما كان ينوي فعله هذا المساء، اتصل على هاتف قهوة الست متاعب وأبلغ صبيها أن يبلغ عماد تأجيله لقاء مساء اليوم لمساء الغد.

قرر أخذ حمام سريع للانتعاش والانطلاق بعدها للمشفى، وبينما هو يحضر نفسه فتح الراديو للتسلية ثم توجه ناحية الدولاب لإخراج ملابس نظيفة.

(تششششش الإذاعة المحلية تقدم حلقة جديدة من برنامج ما وراء الطبيعة، برنامج يعده ويقدمه الدكتور نجم الدين السيوطي)

توقف مكانه للحظات، ثم أدار رأسه ناحية الراديو مستغربًا من ميعاد بث البرنامج الذي يذاع كل ليلة مساءً لا عصرًا! ثم قال لعلهم غيروا موعده، أكمل ما كان يفعل وقبل أن يغادر الغرفة استوقفته مقدمة الدكتور نجم الدين وهو يقول:

«مساء الخير أعزائي المستمعين، اليوم سأحدثكم عن ظاهرة قديمة تدعى ظاهرة التلبس، أي أن قوىً خارجية تتلبس جسد شخص حي وتمنحه قدرات خاصة، وقد سجلت حالات كثيرة عانت من تلك

الظاهرة في أوروبا وحتى في الدول العربية، غالبًا ما يصاب هذا الشخص بالتلبس عقب التعرض لصدمة نفسية قوية كفقدان عزيز ومحاولة انتحار فاشلة للحاق به أو التعرض لحادث قوي أوشك أن يودي بحياته، في تلك اللحظة تكون الروح ضعيفة عن مقاومة هجمات من قوى غير مرئية لجسدها لغيابها عن الوعي، الكثير لا يحدث لهم تلبس وذلك بسبب رغبتهم الداخلية في الاحتفاظ بالحياة وضرورة تلاحم الروح مع الجسد، أما في حالات نادرة تصادف عدم رغبة المريض في الحياة وعدم تمسكه بملازمة روحه لجسده، فيصبح صيدًا سهلًا لتلك المخلوقات، أي أنه هو من يأذن لها بتلبسه والسيطرة عليه تششششششش».

انقطع الإرسال فركض نحو الراديو يحاول استعادة البث لكنه ذهب بلا رجعة، وقف حاتم شاردًا في هذا الاحتمال، ولكنه تراجع سريعًا عن الاقتناع بتلك الفكرة، فهو لا يريد أن يسقط من عين مريم بفضل تلك الترَّهات.

• • •

يبدو أن ميسرة قد وقعت أسيرة في سحر هذا الشاب التركي المنطوي الحزين دائمًا، وبعد أن اختتمت

تلك الأُمسية الفنية الرائعة عرضت عليه توصيله لمنزله فلم يمانع، لعله انجذب إليها هو الآخر أو بالأحرى لعله انجذب لشيء ما فيها، شيء لن يجعلها سعيدة في النهاية.

• • •

عندما قالوا لا تحكم على الأمور بظواهرها لم يتحدثوا فقط عن الهيكل الخارجي للأشياء، وإنما أيضًا التفسير السطحي، الانطباع الأول، والأخذ بالمتشابهات، كل تلك المبادئ المُشَكِلة للأحكام أثبتت فشلها بنسبة كبيرة، لذا فالشاهد من الحِكمة أن تتريث قدر المستطاع وألا تتجاهل التفاصيل، التفاصيل، نعم التفاصيل تحوي الكثير من المفاجآت، فقط دقيقي الملاحظة هم الفائزون.

لم يتأخر حاتم على مريم المنتظرة على أحر من الجمر، والتي كانت وما زالت تحت تأثير الصدمة، ليس لاختفاء وظهور المريض فهي أبعد ما يكون عن جو الجن والأشباح وما وراء الطبيعة غير الطبيعي، وإنما حول من الفاعل؟ وكيف؟

طيلة الطريق وهو يعد عدته ويرتب أفكاره، كيف سيروي لها ما اقتنع به أو لم يقتنع ولكنه حدث بالفعل.

وها هو أمام مكتبها وقبل أن ينقر بابه إذا بأحد الممرضين يخبره أن الدكتور مراد طلبه أكثر من مرة على وجه السرعة، تحير قليلاً، تخير سريعًا، دكتور مراد ليس معتادًا على طلب أحدهم على وجه السرعة، لعل للأمر علاقة بمريم، قال في نفسه أعرف أنا أولاً، فلو خير بشرتها، ولو شر حميتها.

• • •

بدا على وجه الدكتور مراد شيء من الألم والحزن، هكذا شعر حاتم.

حاتم: مساء الخير.

مراد: أهلاً حاتم اجلس.

حاتم: خيرًا حضرة المدير؟

تنهد، تردد، تخبط وتحير ثم قرر.

مراد: مريم تعاني مشكلة نفسية لاحظتها من مدة ولكن الأمر خرج تمامًا عن السيطرة، فكرت ولم أجد غيرك يشاركني هذا الحمل الثقيل، حتى وإن كنت كبير أطباء العالم لن يطاوعني قلبي على نعت ابنتي الوحيدة النابغة بالمريضة نفسيًا.

تجمدت أطراف حاتم وتمنى لو أن مراد الأغا يقصد

مريم أخرى.

حاتم: مستحيل، أ.. أقصد أنه لم تتضح عليها أي أعراض غير طبيعية.

مراد: لأنك لا تلازمها أغلب الوقت مثلي، اليوم روت لي الخادمة أنها نادتها كثيرًا في الصباح وبالرغم من أنها كانت واقفة أمامها مباشرةً لم ترها، واستمرت في الصراخ عليها، كما ذكر الجنايني أنها توهمت فساد عجلات سيارتها واستقلت تاكسي، وفوق كل هذا توهمت فيّ الخيانة، وأني متآمر عليها، أنا! أبيها! ولمصلحة من؟ لا أدري؟!

حاتم متلعثمًا: «ق، قد يكون بعض الارتباك والتشويش ليس إلا؟» يشعر حاتم بانصهار قلبه.

مراد: قد يا حاتم، لذا أود أن أطالبك بمساعدتها بالبقاء بجوارها قدر المستطاع فهي لم تعد تثق بي والعدول عن تبني تلك الحالة التي أسميتموها أنونيم والتخلص منه في أسرع وقت، فقد كان شؤمًا عليها واندماجها معه سيزيد حالتها سوءًا، وإلا فلن أملك الكثير من الخيارات.

أومأ حاتم رأسه بالموافقة الأكيدة على المطلب الأول والذي لم يكن له داعٍ فهو بالفعل يعتني بها قدر

المستطاع بلا أسباب، فقط لأنه يحبها، أما المطلب الثاني فاعتبر أنه لم يسمعه من الأساس، فإقناع مريم بذلك من المستحيلات الأربعة، كما أنه على أتم استعداد لتحمل أي متاعب بدلاً منها، وقبل أن يغادر المكتب استوقفه مراد قائلاً: «حاتم، لن تحتاج لقولي أن ما دار بيننا هنا لا يتعدى عتبة مكتبي»

هز حاتم رأسه بالتأكيد ثم ذهب.

• • •

خرج من مكتب مراد الأغا وسيل من الوجع الهائل قد انسكب على قلبه، أحرق صدره وغص حلقه، فإن كنت حقًا أحببت يومًا بصدق فستشعر بما شعر به حاتم، بتلك الغصة التي تحتل منتصف صدرك وتقبض عليه إذا أصاب حبيبك شر.

توجه لمكتب مريم التي كانت تنتظره أكثر من أي وقت مضى، غارقة في بحر أفكارها الأعنف تخبطًا وشكًا وحيرة.

(الشك، نعم الشك، شعورٌ غريزي يحتل عقلك وفؤادك كأنما قوى خارجية تسيطر عليهما دونما أدنى تدخل منك. الشك يقتل صاحبه ويضايق المقصود به، رفقًا بالمتشككين، فويلات ما عانوه وما يعانوه وما

سيعانوه أبلغ وأقسى من كل فعل تعاقبوهم به)

دق بابها وتأهلت لمقابلة الطارق المحسوس بخطاه بدقات القلب المتزايدة على حين غرة (حاتم) بلا شك.

استقبلته بنظرة عتاب مبتسمة قائلة:

ـ أتيت ثم ذهبت، لأين ذهبت؟

تسمر قليلاً قائلاً في نفسه:

ـ كيف عرفت؟ هل رأتني؟ هل أبلغها أحد؟

مريم: لا تفكر كثيرًا ولا تحاول اختراع الأعذار، أكاد أقسم أنك ذهبت للدكتور مراد أولًا.

حاتم: لا تدعي الظنون تخدعك، هو من طلبني.

مريم: النتيجة واحدة.

حاتم: لا، بل تختلف، وكثيرًا.

مريم: وإلامَ آل الاختلاف؟

تنهد قائلاً بتردد محاولاً انتقاء أفضل الكلمات:

ـ يدّعي أنك تتوهمين أشياءً منذ فترة، وقد تجلى ذلك صباح اليوم راميًا اللوم على أنونيم.

أومأت برأسها منكسة إياه في حسرة، تعجب من

صمتها وكأنه على حق، قاطع حزنها الشارد قائلاً:

ـ هل هناك شيء تخفينه يا مريم؟

مريم: «لا أجيد الدفاع عن نفسي فهو دائمًا يُحملني أسباب كل شيء» قالتها بلا مبالاة.

(لم تكن تلك النبرة ولا النظرة التي انتظرتهما، أدركت منهما أنه على المحك، بين الشك واليقين، آثرت ألا تبوح له بما حدث رغم انتظارها له على اللهيب، فماذا كان عليها أن تفعل؟! أتتراشق الاتهامات بينها وبين أبيها أي منهما المريض؟)

مريم: دعنا من هذا وأخبرني إلامَ توصلت اليوم؟

حاتم: بل أخبريني أنتِ ما الشيء الذي أزعجك اليوم؟

ثبتت عينيها في عينيه بعمق ثم قالت:

ـ ما عاد مزعجًا بعد الآن.

أدرك حاتم خطأه، كما أدرك أن محاولة إصلاح هذا الانطباع شفويًا لن يجدي، في نفس الوقت لا يمكنه تخطي فضوله، فهو حقًا حائر بين الأب وابنته، ولا يرى أنه من الحب الحقيقي تجاهل كون الحبيب قد يكون مصابًا بشر، بل من واجبه التأكد كي يستطيع مساعدته

بدلاً من تجاهل الأمر وتركه للتفشي.

آثر الدخول في صلب الموضوع بدلاً من الربت على كتفيها داعمًا إياها ببضع كلمات باهتة، هو لا يدرِ فعلاً ما الذي منعه من ذلك، قد يكون الأسوأ أحيانًا من اتخاذ القرار الخاطئ التباطؤ في تنفيذ الصحيح.

• • •

(الأهرامات، أحد أكبر الألغاز التي حيرت البشرية، محط الأساطير وموطن العجائب، فهل تعلم أن ارتفاع الهرم الأكبر مضروبًا بمليار يساوي نفس المسافة بين الشمس والأرض، وأن المدار الذي يمر من مركز الهرم يقسم قارات العالم إلى نصفين متساويين تمامًا، كما أن أساس الهرم مقسوم على ضعف ارتفاعه يعطينا عدد لودولف الشهير (3.14) الموجود بالآلات الحاسبة، وأركان الهرم الأربعة تتجه إلى الاتجاهات الأصلية الأربعة في دقةٍ مذهلة؟)

تلك حقائق علمية أكيدة لم يهتم بها مصطفى مطلقًا، لكنه آمن بقوة الهرم بناءً على حقائق أخرى لا علاقة لها بالحسابات والنسب العلمية ولو أنها علمية أيضًا، حينما قرأ كتابًا للعالم الفرنسي أنطوان بوفيس في منتصف القرن التاسع عشر يؤكد فيه من خلال الدراسات

والتجارب أن قوة شكل الهرم يمكنها إحداث المعجزات، فالهرم يعمل على تجفيف وتحنيط الأشياء لكنه يمنع التعفن والصدأ ويعيد الحيوية والشباب ويعالج ما أفسده الوقت، الهرم يضخم التأثيرات الشمسية أو الكونية على الأشياء، فوجدوا أنه إذا بُنيت غرف المرضى على شكل هرمي يمكنه أن يعجل بشفائهم، الهرم يساعدك على العمل بنشاط فائق دون استخدام أي عقاقير منشطة، ولا تطيق الحشرات المكوث بداخله.

لذا كان يؤثر المكوث بجواره وقضاء عطلاته وأوقاته، يتخيل لو أنه يستطيع جلب جثمان أمه ودفنه داخل أي من تلك الأهرامات، فهل يمكن لسحرها أن يعيد إليها الحياة؟! بدا ذلك جنونيًا للحد الذي يستدعي القلق.

وصلت ميسرة حيث مصطفى الجالس ينتظرها، فلم تترك الفتاة مناسبةً بالأمس لم تعرض فيها رغبتها في مقابلته ورؤيته مرة أخرى، وتكررت المقابلات بينهم كثيرًا في حضرة الأهرامات وفي كل مرة كان يغمرها سحر مصطفى أكثر وأكثر، حتى أصبحت تشعر بالثمالة بقربه وكأنه يستمد المزيد من السحر والجاذبية من كبير زعماء الجن العاشق، حتى أنها عرضت عليه خلوة

لم يرفضها.

ذهبا لشقتها التي تستأجرها مع زميلاتها في غيابهن وكانت الرغبة بينهما متأججة وما إن خلعت سترتها حتى تجلى الوشم الذي على ذراعها، وشم الأفعى.

لم يدرِ مصطفى بنفسه في تلك اللحظة، لم يستفق إلا وهو مُعتلٍ جسد الفتاة، مُطبقًا على عنقها بقوة حتى فارقت الحياة مرددًا: «المجد لأبيب».

فزع الفتى من هول المشهد، انهار بجوارها باكيًا مشدوهًا مصدومًا من كافة الاتجاهات، لملم نفسه بصعوبة وأعجوبة وفرّ هاربًا، ذهب لمنزله واختبأ من الناس ومن نفسه واستفاق في اليوم التالي وقد نسي كل ما حدث.

• • •

تحير حاتم كثيرًا من أين يبدأ حديثه!

لكن في النهاية فضل أشهر بداياته.

حاتم: ذكرت لك من قبل أننا لسنا أمام مريض عادي بل أكثر من ذلك، شككت ولم يكن شكي زائفًا، كل ما توصلت له أكد إحساسي.

مريم: «أي إحساس يا ترى؟» سألت بقلة اهتمام.

حاتم: «إن الأمر أعقد مما ظننا، استعدي لعرض سلسلة الظواهر المُبشرِة في أمر هذا الشاب» مضى يروي لها أحداث يومه في تلك المشفى من أول المريض الذي هجم عليه ثم الدكتور محمود ومدام عايدة، إلى عماد ومتاعب حتى وصل للجزء الأكثر إثارة.

- «روى عماد في نهاية حديثه أنهم كانوا يسمعون صرخاته كل مساء متحدثًا بلغة غريبة ولم يفهموا من كلامه سوى كلمتين، مصطفى وأبيب.

قاطعته مريم كي تقلل من حماسه البادي عليه والذي يعبر عن اقتناعه بكون الحالة أنونيم ملبوسٌ أو ممسوس أو أنه ساحر أو مشعوذ:

- مهلاً أيها الطبيب، أراك تنجرف بعيدًا جدًا، فلم ننل كل هذا القسط من التعليم في الداخل والخارج حتى نُسلم لتلك الخزعبلات، أنونيم ما هو إلا مريض نفسي ولا علاقة للخوارق بالموضوع.

بالفعل يهدأ حاتم قليلاً:

- لم أجزم بذلك يا مريم، ولكن لا يمكننا التغاضي عن تلك المعلومات، كما أن البارانورمال علمٌ أيضًا

والطب النفسي لا ينفي وجود الطاقات السلبية.

توقف قليلاً عن السرد كأنما شعر باختناق، كأنما تذكر ما حل به هذا الصباح على غير العادة، ثم استعاد ما قاله الدكتور مراد، رابطًا كل الأحداث ببعضها البعض، ثم انتبه لها قائلاً بيقين حماسي زائد.

- «لقد عانيت اليوم الكثير من الصعوبات في طريقي للمشفى، والدكتور مراد أكد أن ذلك أصابك أيضًا، أنا الآن بتُّ متيقنًا من شعوري أكثر من ذي قبل، هذا الشاب ليس مجرد مريض نفسي بل إنه يعاني من شيء خارق للعادة.

تابعت مريم طريقته في السرد وكل انفعالاته وخفقاته وحماسته، وحال عينيها يقول هذا بالضبط ما كان ينقصني، الشخص الوحيد الذي أعتمد عليه وأثق فيه يؤمن بالخرافات كأنها حقيقة علمية.

كانت لديها الرسومات التي أحضرتها لها حنان الممرضة، ترددت في عرضها عليه بعد ما قاله.

انتهى من حديثه منتظرًا ردها الذي كان:

- أنا مرهقة جدًا، وقد قلت الكثير، هل تمانع أن أذهب لأستريح على أن نناقش كل هذه الاكتشافات الثمينة غدًا؟

بشيء من الصدمة البسيطة من ردة فعلها على نوعية ما يرويه، إلا أنه تفّهم كونها تعاني منذ الصباح وأصبحت مشوشة والأفضل لها أن تستريح.

وبالفعل غادرت بعده المكتب، طاويةً الرسومات الممزقة في حقيبتها منطلقةً لفيلتها، مختفيةً بحجرتها تعيد ترتيب الوريقات الممزقة، وقد ظهرت بعض الرسومات غير المفهومة، أغلبها نقوشات فرعونية كأنها طلاسم وفتاة موشومة بعلامة الأفعى وحولها أفاعٍ كثيرة، ثم امرأة ذات عيون زرقاء محاطة بنيران، ثم عبارات مكتوبة باللغة التركية، تتحدث عن لعنة ما وقرابين وسبيل الخلاص والتحرر من الجسد وشيء عن الفناء وآخر عن التضحية بالجسد، لا تدرِ لماذا انقبض قلبها، ثم أخذت تتذكر بعض ما قاله حاتم عن لسان المدعو عماد، حاولت ألا تقع أسيرة لتلك الترهات والتفكير بشكل علمي، ولكن شيئًا ما سيطر على قلبها يشبه الانقباض أو التوتر أو ربما على ما يبدو؛ الخوف.

• • •

هل تجرعت يومًا مرارة الفقد؟

إذا كانت الإجابة (نعم)، فأنت محظوظ لبقائك بكامل قواك العقلية، وإذا كانت (لا) فأنت لست بائسًا أكثر من

هذا الشخص.

ولتعلم أن لكل فراق نهاية، ولكل عاشق لقاء مهما طوت الأقدار المعشوق، فقط إن كنت حقًا تحب.

تلك الكلمات التي حفظها مصطفى ميراز بين طيات قلبه فور أن شقت مسامعه، بعد أن هجره الجميع حتى أخاه ما عاد يسأل عنه ولا يهتم لأمره، حتى مجدي صديقه الوحيد وشريكه في السكن فقط فتح الباب وغادر ولم يعد!!

(ليس هناك أسوأ من الرحيل المفاجئ، مؤلم كأزمة قلبية، صادم كموت الفجأة)

نعود إلى السؤال الأول: هل تجرعت يومًا مرارة الفقد؟

كان سؤال الدكتور كمال في محاضرته بكلية الفنون الجميلة آخر محاضرة حضرها مصطفى وبعدها امتنع كليًا عن الحضور، وهو يعرض للطلبة لوحته الأخيرة، كانت عبارة عن جسد تآكل من كل جوانبه حتى أصبح خاويًا، جسد لكنه ممزق لا قيمة له ولا عمل، برأس فارغة لا عقل فيها ولا تمييز، وروح منسلخة تتخبطها الشياطين، لا موت يريحها ولا حياة.

كادت تلك الكلمات أن تُذهب عقل فتانا الذي ما عاد

ينتظر أحدًا بل ويتشوق أكثر لمن رحل.

شق صوت الدكتور كمال مسامعه من جديد بكلماتٍ أكثر عمقًا وفلسفية:

- ليس ضروريًا أن يحتوي كل شخص مصيبة الفقد كالآخر، فلكل منا طاقته وسعته، تمامًا كتفاوت القدرات البدنية، فلا تعِب على أحدٍ كونه لا يستطيع التحمل إن كنت أنت تستطيع، لا تقسُ عليه بما منحك الله من نعمة حرمه منها.

انتهت المحاضرة، سارع بالمغادرة ليصطدم بـ (ميسرة) تذكرها، نعم تذكر ميسرة الفتاة التي أنهى حياتها.

طرقعت الملكة مريت بأصابعها فانطفأت البلورة السحرية وعادت حفرة النار، أمرت جسده أن يهوي على الأرض، بكى فتانا بحرقة على ما اقترفت يداه بهذه الفتاة البريئة، اقتربت منه الملكة قائلةً:

- لم أتوقع منك كل هذا الضعف، قم أيها الأمير، قم وأكمل ما بدأت، انحر القرابين وأعدك أن أجمع شمل روحك على روح أمك في جسدين جديدين تملأهما الحياة في عالم آخر يخلو من سخافات البشر عديمي الرحمة.

ربتت تلك الكلمات على قلبه كما لو كانت سحرًا وخرج من الخيمة إنسانٌ آخر مسلوب العقل يسير حسب ما يؤمر.

• • •

أمضت مريم ليلة مريرة وهي تحاول الربط بين ما رواه حاتم وما تراه في الوريقات، محاولةً تجنب وساوس فرضيات التلبس أو وجود شيء خارق (ميتافيزيقي).

خطف النوم عينيها لوقت قليل، استيقظت على صوت المنبه، لملمت الوريقات المجمعة بالشريط اللاصق.

أخذت حمامًا منعشًا ولم تهتم كثيرًا بالإفطار أو القهوة كالمعتاد، استقلت سيارتها وانطلقت إلى المشفى، إنه اليوم الثاني من المهلة المحددة، توجهت لمكتبها بسرعة الصاروخ، اصطدمت بأحدهم دونما أي تركيز، وجه جديد، شاب يبدو في العشرينيات، لم تأبه رغم شعورها أنها رأته من قبل، انكبت على الكاميرات التي تراقب غرفة أنونييم تسترجع الساعات الماضية، ماذا كان يفعل مريضها طيلة الليل يا ترى؟!

اكتشفت أنه استيقظ في تمام الثانية عشرة من

منتصف الليل، ظل يصارع ويصارع على ما يبدو كائنات غير موجودة، ينتفض ويحملق، تجحظ عيناها ويفتح فمه وكأنه يحتضر ثم يتعب ويستسلم، يريد أن يفك القيد ويعاود الكَرة من جديد حتى بزغ نور الفجر.

بالتأكيد هذا السهر هو ما يجعله ينام طيلة النهار تقريبًا وبالتالي لا أمل في إيقاظه لبدء الجلسات.

ثم فجأة اسودت الشاشة وانعدمت الرؤية في تمام الساعة الرابعة صباحًا، ثم عاد الإرسال من جديد، التوقيت المسجل يشير للخامسة صباحًا! أي أنه قد تم فصل الشاشات ساعة كاملة؟!

الآن المريض مفكوك القيد وقد دمر الغرفة تمامًا ثم هوى على الأرض بمجرد تسرب ضوء الشمس للغرفة.

ثم تم فصل الشاشات مرة أخرى وعاد الإرسال بعد ساعة أخرى، أي قبل ساعة من الآن! عاد ممددًا على سريره غارقًا في نومه ومقيدًا، قالت باستياء:

- ما هذا الهراء؟ هل يرواغني أحد؟

انطلقت من على مكتبها بسرعة الرصاصة نحو غرفته، اقتحمتها بجسارة لفتت نظر الجميع، ركضت خلفها مدام وفاء وحنان، اقتربت منه وسط تحذيرات الممرضات خوفًا عليها.

عاينت الغرفة التي كانت مدمرة أما الآن فهي في أحسن حال، لم تجد أي علامات للتدمير الذي رأته في التسجيل.

كانت وفاء على وشك النطق قبل أن تُشير إليها مريم بالصمت موجهةً لها أمرًا بنبرة شديدة اللهجة بألا تقترب من غرفة مريضها بعد الآن، ثم أمرت حنان باتباعها.

• • •

تلك المرة الأولى التي لا يسمع فيها حاتم صوت المنبه ولا يستيقظ في موعده، كانت رأسه ثقيلة جدًا ونومه أيضًا.

تلك الليلة الأولى التي يرى فيها كوابيس بشعة، رأى أنه حبيس في منزل زجاجي، حوائطه زجاج وأبوابه زجاج، يسمع صوت لهث أحدهم وخربشاته من إحدى الغرف القريبة، وكلما اقترب من تلك الغرفة كلما علت الأصوات، وقف أمام بابها فوقفت الأصوات، ولكنه تجاسر وفتح الباب، ليجد أمامه الحالة أنونيم، يقف نصف عاريًا، تسيل الدماء من أظافره وأصابعه، بعد أن حفر على الحوائط طلاسم وكلمات باللغة التركية وباللغة العربية أيضًا، كلمات كثيرة تتحدث عن لعنة،

ونقوشات لأفاعٍ سوداء.

كانت حالة أنونيم مزرية للغاية أكثر مما هي عليه في الواقع، كان متأهبًا لشيءٍ لم يدركه حاتم إلا بعد أن نظر إليه مباشرةً.

هجم أنونيم عليه محاولاً قتله ومع مقاومة حاتم استطاع النجاة بعد أن جرحه أنونيم في وجهه، ثم هرب سريعًا من تلك الحجرة وظل يركض بين الحجرات الأخرى حتى اصطدم بأحد الأبواب دون أن يراه وسقط مغشيًا عليه.

انتفض حاتم من هذا الكابوس، لا يقوَ على التقاط أنفاسه، كأن حملاً ثقيلاً فوق صدره، لم يستطع العودة للنوم سريعًا، ظل يتجول في الشقة والبراندة، ثم أدار محرك الراديو ليجد صوت الدكتور نجم الدين السيوطي يبث حلقة جديدة في توقيت آخر أكثر غرابة؛ الثالثة فجرًا.

«تششششش الإذاعة المحلية تقدم حلقة جديدة من برنامج ما وراء الطبيعة، برنامج يعده ويقدمه الدكتور نجم الدين السيوطي، تششش أعزائي المستمعين أهلاً ومرحبًا بكم، سوف نستكمل اليوم موضوع ظاهرة التلبس وكيفية علاجه وقد تحدثنا عن حالة الشاب

الذي توهم أنه مات وحُبِست روحه في عالمٍ آخر بين الموت والحياة وأن أحدهم تلبس جسده بعدما أصابته لعنة ما»

دب الفزع في قلب حاتم كاد أن يغلق الراديو لولا الفضول البشري، فعاد منصتًا: «وقد رأى الباحثون الروحانيون أن علاج تلك الحالة لن يكون إلا بتخليص المريض من تلك اللعنة واتباع القواعد، وتششششششش» انقطع الإرسال.

غضب حاتم بشدة، لكم الراديو الملعون عدة لكمات صارخًا «أي قواعد هاه أي قواعد انطق» ولكنه فشل في استعادة الإرسال وشعر بدوار ثم غُشي عليه.

وكان هذا آخر شيء يتذكره قبل أن يستيقظ مرة أخرى ممددًا على سريره كأنه لم يستيقظ من قبل.

استفاق تلك المرة وقد تأخر كثيرًا على موعد العمل، انتفض يرتدي ملابسه دون أخذ حمامه أو تناول قهوته أو الرد على هاتفه الذي يظل يرن.

استقل سيارته وبينما هو يتابع الطريق في المرايا فإذا به يلحظ وجود جرح بسيط في خده، تمامًا في نفس المكان الذي جرحه فيه أنونيم في الكابوس، تشتت ذهنه حتى كاد أن يصطدم بسيارة أخرى.

• • •

لحقت حنان بالدكتورة مريم حسب طلبها لمكتبها، أخرجت مريم من حقيبتها رزمة أوراق بيضاء للرسم وعدة أقلام، طلبت منها أن تضع تلك الأوراق في الحال في غرفة المريض أنونييم وفك قيده، صُدمت حنان من ذلك القرار، شدّدت عليها مريم أن تلازم غرفة المريض وتمنع أي شخص من الدخول عليه، أي شخص حتى لو كان الدكتور مراد شخصيًا إلا في حالة وجودها.

سألتها أيضًا عما إذا دخل أحدهم غرفة المريض أثناء مناوبتها ليلاً، توترت قليلاً وتلعثمت قائلةً:

- لا، إطلاقًا.

تشككت مريم، فحنان بالتأكيد لم تلازم غرفة المريض طيلة الوقت فهي مسؤولة عن دورٍ بأكمله، رفعت سماعة هاتف مكتبها وطلبت رئيسة الممرضات مدام وفاء، طلبت من حنان المغادرة وتنفيذ التعليمات بصرامة وسرية خاصةً فيما يخص أوراق الرسم والأقلام، ثم سمحت لها بالانصراف.

دقيقة وحضرت مدام وفاء التي كانت في حالة من الاستغراب من طريقة تعامل مريم المستحدثة، لم

تتراجع الأخيرة عن حدة نبرتها وأخبرتها أن تختار من الممرضات من تقوم بعمل الدور ليلاً بدلاً من حنان وألا تقترب من حنان أيضًا، لا بأمر ولا بنهي.

حاولت وفاء الاستفهام أو الاستيضاح وإن كان لها علاقة بالموضوع أو هل قصرت في شيء؟!

إلا أن مريم كانت ككومة قش اشتعلت فيها النيران يفضل تجنبها والابتعاد عنها.

• • •

وصل حاتم متأخرًا عن موعده ساعة كاملة، اقترب من مكتب مريم على حذر إذ يشم رائحة استشاطة غضبها من على بعد أمتار.

استأذن للدخول فوجدها ممسكة بسماعة الهاتف ثم صرخت فيه:

- أكثر من ساعتين وأنا أحاول الاتصال بك ولا مجيب أين كنت يا دكتور؟

احتار حاتم في الرد، فلو قال الحق؛ أن النوم سرقه فستغضب، ولو كذب وقال أن الطريق أخره فلن تصدق فهو يوميًا على نفس الطريق وهي أيضًا.

فقرر كأي رجل شرقي أصيل أن يكذب:

ـ كان الطريق في شارع الهرم مزدحمًا جدًا يبدو أن موكبًا للسيد الرئيس كان مارًا في الجوار.

مريم باستفهام متشكك: السيد الرئيس؟

حاتم متلعثمًا: نـ نعم السيد رئيس الحي.

نظرت له نظرة عميقة مُكذِبة:

ـ كان أولى بك أن تُلقي بنفسك أمام موكب سيدك الرئيس على أن تأتيني متأخرًا وأنا في أشد الحاجة إليك.

لم يستطع حاتم الثبات على الكذبة وكأي رجل عاشق أصيل اعترف بالحقيقة:

ـ أعتذر منكِ يا مريم كان ليلي عصيب وغريب وطريقي أيضًا، رأيت كابوسًا حرمني النوم وكدت أتسبب في حادث سير، لم أشأ أن أغُم عليكِ يومك، على ما يبدو أنكِ مكتفية بما عندك.

تعاطفت معه رغم غضبها:

ـ حسنًا، أنت الآن أفضل حالاً على ما يبدو، دعنا نبدأ العمل.

ثم أخرجت من درج مكتبها الوريقات وألقتهم أمامه ثم جلست وأشارت له بالجلوس قائلةً:

- انظر وأعطني رأيك.

نظر حاتم للوريقات ثم اتسعت عيناه بقوة، اتساعًا يحمل الكثير من الخوف، تسارعت نبضات قلبه وارتجفت شفتاه وهو يقول:

- غير معقول.

فقالت له بتأهب:

- هل من شيء؟

حاتم: لن تصدقي.

مريم: قل ما عندك ولكن حاول ألا تقحم أفكارك في الأمر.

حاتم: لم تعد مجرد أفكار، كل ما في هذه الوريقات هو ما رأيته في كابوسي الليلة، النقوشات الطلاسم، الكلمات التركية، إلا بعض التفاصيل، حتى هذا الجرح في وجهي جرحني إياه أنونيم في المنام.

مريم: اهدأ يا حاتم.

رد بانفعال: ألم تسمعيني جيدًا؟ أقول لك هذا تقريبًا ما رأيته.

تحاول امتصاص انفعاله: حسنًا، أصدقك، ولكن

يجب أن تخبرني بما رأيت أولاً.

(روى لها حاتم ما رأى وما حدث بالضبط)

قالت: حسنًا، أنت رأيت بعض الأشياء وليس كلها، لو فكرت دقيقة كطبيب وتخلصت من تلك الضغوط التي شكلها هذا العماد والبرنامج الخزعبلي الذي تدمنه منذ عدة أشهر ستجد أن الأمر ببساطة ما هو إلا خدعة من العقل الباطن الذي يقوم بتخزين بعض المؤثرات والأحداث ثم ينسجها على هيئة أحلام أو كوابيس تجعلك تظن أنك رأيت هذا الشيء من قبل، والحقيقة أنك لم تره، حتى هذا الجرح ليس دليلاً ربما جرحت نفسك بأظافرك وأنت نائم ولا تشعر و...

وقف معترضًا مقاطعًا كلامها بحزم قائلاً:

- لا لا لا، لا تحاولي إقناعي أن عقلي الباطن يمارس معي الظُرف، ما قلته لكِ قد حدث، أنا طبيب كما ذكرتِ وأستطيع التمييز بين الخداع العقلي وما حدث بالفعل، وفي المرة القادمة سأُدون ذلك قبل أن آتي لتصدقي أكثر ولا تتهميني ضمنيًا بالخلل النفسي.

اقتربت منه مريم تُهدئ الأجواء سريعًا، أمسكت يده بقوة قائلة بلطف:

ـ لم أقصد ذلك نهائيًا، كلانا تعرض لضغط مفاجئ وكبير يا حاتم (نظرت في عينيه بعاطفة شديدة تتوسل السماح) سامحني (بدأ بالفعل يهدأ) أرجوك تحملني كما يجب أن أتحملك أنا أيضًا، الوقت ضيق ويمر سريعًا ونحن مضغوطان للحد الذي يجعلنا نخرج عن المألوف.

انتبه للتو حاتم لملمس يدها، تلك المرة الأولى التي تمسك بيده هكذا، كما انتبهت هي أيضًا للطريقة التي تتحسس بها كفيه فتركتهما يهويان في الهواء على الفور.

فقال حاتم متأففًا: ما هذا الغباء؟

مريم مندهشة: نعم؟

حاتم مستدركًا بتلعثم: ما هذا الغباء الذي بدر مني، لم ألقِ عليكِ تحية الصباح.

ابتسمت قائلةً: بل أنا التي لم تمنحك الفرصة.

حاتم: حسنًا، دعينا نبدأ من هنا، سألقي نظرة على أنونيم أولاً ثم نتناقش في الخطوة التالية.

ردت بسرعة: لا، فقد منعت عنه الزيارة اليوم.

حاتم مستغربًا: حتى عني؟

مريم بلطف: الأمر ليس شخصيًا يا حاتم، بل أردت أن أتركه يقضي بعض الوقت بمفرده يرسم أو ينقش، لعله يكتب شيئًا يخصه ويساعدنا في التعرف إليه أو أي شيء.

حاتم: لا بأس، أما أنا فأعلم ما هي الخطوة التالية، ألقاكِ مساءً في مكاننا المفضل هل تمانعين؟

قالت مبتسمة: أبدًا.

غادر هو وجلست هي تجاهد كثيرًا تلك الأفكار التي يُسلم بها حاتم مؤخرًا حول وجود شيء خارق وغير علمي أو منطقي، جلست مسترخيةً أمام شاشة المراقبة ووضعت كل تركيزها على أنونيم الغارق في نومه، دون أن ترمش ولو للحظة.

• • •

انطلق حاتم صوب مستشفى الإرادة ليقابل عماد.

خرج له الأخير متلفتًا حوله كي لا يراه أحد من المستشفى خاصةً الدكتور محمود سليمان وركب معه في السيارة وانطلقا صوب قهوة متاعب، وصلا سريعًا وجلسا على نفس الطاولة.

عماد: لماذا لم تأتِ بالأمس؟

حاتم: لماذا؟ هل فاتني شيء؟

عماد: لقد أمّنت لك طريق الدخول والخروج وكانت ليلة مناسبة، لم يكن للدكتور محمود سليمان مناوبة ليلية.

حاتم: وماذا بشأن الليلة؟

عماد بقلة يقين: لا بأس بالليلة، ولكنه سيمر على كافة الأدوار وأخشى أن يسبب ذلك لك بعض القلق.

حاتم: ألم تقل أنه لا يقترب أبدًا من الغرفة لا هو ولا غيره؟

عماد: بلى.

حاتم: إذن لا خوف، هل هذا كل ما في الأمر؟

عماد مبتسمًا ببلاهة: بل يوجد شيء آخر ستفرح به كثيرًا.

حاتم منتبهًا: ما هو؟

عماد مداعبًا: توقع أنت، هيا توقع توقع.

حاتم حنِقًا: اختصر يا عماد فقد نلت كفايتي من الظُرف اليوم لن أتحملك أنت وعقلي الباطن.

عماد بنبرة اعتذار: حسنًا، حسنًا» (يخرج ورقة من

جيب قميصه ويعطيها لحاتم متمتمًا) لقد توحمت والدتك على رابطة عنق بالتأكيد.

حاتم: ماذا تقول؟

عماد: أقول تفضل يا سيدي، استطاعت الست متاعب أن تحصل على تلك المعلومات من مدام عايدة، ما رأيك؟

(لمعت عينا حاتم على الفور واتسعتا بالظفر ملتقطًا بلهفة الورقة من يد عماد، فتحها وقرأ ما فيها بصوت مسموع، الدكتور نزيه شمس الدين، دكتور باطنة بمستشفى الهرم)

حاتم بانتشاء وسعادة بالغة: أنت أجمل عماد من بين جميع الأعمدة.

يربت عماد على صدره تعبيرًا على الشكر لهذة المجاملة قائلاً:

- بل أنت أجمل الحتميات يا دكتور حاتم.

ثم استدرك طالباً بنبرة خجولة أو هكذا حاول أن تكون خجولة وحذرة:

- ثلاثمئة جنية إن شاء الله.

حاتم مستفهمًا بتعجب: ما هذا؟

عماد: الحلاوة؟

يخرج حاتم المبلغ من محفظته قائلاً:

- الحلاوة؟ قل محل حلوى (ناوله المبلغ مستكملاً) هاه متى يمكنني التسلل للغرفة؟

يأخذ عماد المال بسعادة مفرطة:

- في تمام الثانية عشرة بعد منتصف الليل، لا تتأخر حتى تستطيع الدخول والخروج دون أن يراك أحد.

• • •

ظلت مريم تراقب أنونيم الذي استيقظ للتو، كان هادئًا، وديعًا، جذابًا وجميل المُحيا رغم كل تلك الجروح والتعب والإجهاد على وجهه، نظر بجانبه ليجد الأوراق والأقلام، مدّ إليهما يده المرتعشة بلهفة كبيرة كأنه وجد كنزًا، أخذ يرسم ويرسم وظل هكذا قرابة النصف ساعة، كان سريعًا ماهرًا، ثم نظر فجأة نحو كاميرا المراقبة المثبتة عنده في الغرفة والتي لا يفترض أنه يعرف مكانها أو يراها، ولكنه اقترب منها كثيرًا حتى بدا أنه ينظر بعينين متوسلتين لمريم التي اقشعر بدنها من تلك النظرة وفجأة سُحب للخلف بقوة كأن يدًا خفية وقوية هي التي قامت بسحبه ثم أخذ

يتخبط في الجدران كأن شخصًا ما يضربه بعنف، فزّت مريم من على كرسيها وركضت نحو غرفة الحالة صارخة في الممرضين والممرضات أن يلحقوا بها ويحضروا المهدئات والقيود، اقتحمت الغرفة دون حسب أي حساب، لتجد المريض جالسًا في أمان وسكينة على سريره كما استيقظ أول مرة، وقفت متسمرة ووقف الجميع في حالة صمت واستغراب، طلبت مريم من الجميع الخروج، لتنفرد به بجسارة كأنها مغيبة العقل، خرجوا بالفعل بعد تكرار طلبها أكثر من مرة وهم مكرهون.

• • •

انطلق حاتم بسرعة البرق نحو مستشفى الهرم، غير مصدقٍ أن ثمة بارقة أمل وشعاع نور قد أضاء، دخل يسأل الاستقبال عن الدكتور نزيه شمس الدين طبيب الباطنة ولكن سرعان ما انطفأ هذا الشعاع، فقد أخبره الاستقبال أن الدكتور نزيه متغيب عن الحضور منذ عدة أيام، حاول الوصول لعنوان منزله ولكنهم اعتذروا متحججين بأنهم لا يستطيعون البوح بعناوين الأطباء إلا بموافقتهم، فسأل عن نمرة هاتفه على الأقل لكنهم اعتذروا مجددًا لعدم توافرها لديهم.

خرج حاتم بخفي حُنين، وقبل رحيله استوقفه أحد

عاملي النظافة قائلاً له أنه يستطيع مقابلة الدكتور نزيه في عيادته الخاصة إذا كان الأمر ضروريًا، وأعطاه عنوان العيادة فعاد الأمل مجددًا، كما أخبره أن مواعيد العيادة تبدأ من الثامنة مساءً.

• • •

عاد حاتم لمستشفاه ليُبشر مريم التي كانت تنتظر بصيص أمل على أحر من الجمر، ولكن لم يجدها.

أخبرته الممرضة أنها تجالس الحالة أنونيم منذ أكثر من ثلاث ساعات تقريبًا على انفراد، فزع حاتم من تلك المجازفة وصعد نحو غرفة الحالة ولكن منعته حنان من الدخول حسب أوامر الطبيبة، نهرها بقوة قائلاً أنه الشخص الوحيد الذي لا يمكن للطبيبة منعه ولكن الممرضة أصرت حتى كاد أن يتحول الأمر بينهما لمشادة حقيقية، في نفس اللحظة خرجت مريم من غرفة المريض في حالة صمت، اندفع نحوها غاضبًا يقول:

- كيف تمنعني ممرضتك من الدخول؟ وكيف تجالسينه بمفردك؟

(بدت مريم في حالة من الشرود وقالت)

- أرجوك، دعنا نتحدث على انفراد في مكتبي.

لزم حاتم الصمت طيلة المسافة من الطابق الثالث وحتى مكتب مريم في الطابق الأول على مضض وما إن دخلا مكتبها حتى انفجر غضبًا.

ـ كيف لكِ أن تجازفي بنفسك وتنفردي بحالة أشبه بالزومبي؟

أخرجت مريم الرسومات التي رسمها أنونيم وألقتها أمامه على المكتب، صمت حاتم فجأة ونظر نحو الوريقات ثم مدّ يده ببطء والتقطها، كانت تلك الرسومات التي لم تخلُ من الطلاسم والنقوشات عبارة عن شخصيات كأبيها الدكتور مراد الأغا وبدا في الرسمة حبيس غرفة تبدو كغرف المستشفى، وحاتم وبدا طريحًا على الأرض غارقًا في الدماء، ثم هي وتبدو مشقوقة الصدر في حالة حزن وصدمة، ثم رسومات أخرى غير مفهومة تبدو لفتاة ذات وشم الأفعى على ذراعها صوّرها كملاك يسبح في السماء، وامرأة تنذر بالشر ترتدي ملابس فرعونية تمسك عصا برأس أفعى، خلفها رجل عجوز مطموس العينين لا يبدو عليه السماحة نهائيًا يبدو كمشعوذ أو ساحر، ثم عبارات بالتركية تقول:

ـ أنقذوا مصطفى، من شرور أبيب، حرروا روحه الحبيسة في برزخ العصاة، إفدوه بالقرابين كي

يعود.

خرجت مريم عن صمتها قائلةً:

ـ هل ذكرت لي من قبل أنه يتنبأ؟

آثر الصمت، فكررت مريم سؤالها فقال:

ـ وقلتِ أنه لا وجود للخوارق»

قالت: أنت كحاتم بمَ تفسر ذلك؟

قال: كحاتم سأرى جزءًا من اللامنطقية التي تستلزم التفسير المنطقي، ولكني أُفضل الآن التفكير كمريم وأن أعتبر هذا لا شيء، فالمريض قابل الدكتور مراد أثناء سفرك ورآني ورآكِ ولا مفاجأة بالنسبة لي أن يرسمنا وأن يتخيل أوضاع ويضعنا فيها حسب ميوله.

على الرغم من اقتناع مريم التام بالتفسيرات المنطقية التي تُشعرها بالاطمئنان إلا أنها اهتزت نفسيًا من أمر هذا المريض وتصرفاته بلا شك، وهي تحاول الآن ألا تقع في الخطأ المهني الذي يعاني منه معظم الأطباء مهما كانوا متمكنين وعلى درجة عالية من المهنية وهو التأثر بالحالات التي يتعرضون لها والتي قد تصل إلى حد الإصابة بأمراضهم النفسية.

مريم: أوافقك الرأي تمامًا.

رغم عدم اقتناع حاتم كليًا بما قاله إلا أنه كان سعيدًا بقدرته على إنقاذ مريم من حالة الهلع التي بدت عليها، متحملاً بمفرده هذا الشعور.

مريم: هيا أخبرني شيئًا جيدًا.

حاتم مبتسمًا: أبشري، فأنا على وشك أن أصل للدكتور نزيه شمس الدين، اليوم في الثامنة مساءً سألقاه في عيادته الخاصة، وفي الحادية عشرة سأدخل غرفة أنونيم القديمة.

مريم: أود أن آتي معك.

حاتم: عند الدكتور نزيه؟ لا مانع.

مريم بإصرار: وغرفة أنونيم القديمة.

حاتم رافضًا: لا لا يمكن، الأمر برمته غير آمن.

مريم: بل آمن، طالما أنني برفقتك.

أسرت تلك الكلمات فؤاده وشعر بالضعف للحظات

حاتم: أنتِ تعلمين تمامًا أنني لا أستطيع أن أرفض لكِ طلبًا.

مريم بسعادة: نعم، أعلم.

حاتم وهو ينهض قائلاً: جيد، ولكني سأفعل هذه

المرة.

مريم: ماذا؟

حاتم بخفة ظل: أمر الله، تقبليه.

ثم يتجه نحو الباب فتسأله: إلى أين؟

حاتم: إلى حيث يجد الناس راحتهم.

فتح الباب وذهب تاركًا مريم تضحك

• • •

أصيب مجدي بصدمة شديدة عندما عاد ليجد البيت الذي شارك مصطفى فيه عبارة عن كومة من التراب، ركض نحو أقرب جار وسأله ما الذي حدث، أخبره الجار أن المنزل انهار على شريكه في السكن ونقلوه إلى المستشفى في حالة احتضار منذ عدة أشهر ولا يعلم أحد عنه شيئًا حتى الآن وأغلب الظن أنه لقي حتفه.

حزن مجدي بشدة وجلس على الأرض لا يعلم أين يذهب ولا كيف يتأكد من مصير صديقه، حمل حقيبته وتوجه نحو نُزل صغير يقع على أول شارع الهرم وحجز غرفة لشخص واحد، ترك أغراضه وتوجه على الفور نحو مستشفى الهرم التي يظنون أنه نُقل إليها، توجه للاستقبال وسأل عن حالة أتت منذ بضعة أشهر

يدعى مصطفى ميراز، ولم يُستدل عليه في السجلات، ولكن موظف الاستقبال أخبره أنه على حسب ما يتذكر كانت هناك حالة لشاب مجهول الهوية أتت في انهيار عقار كما وصف، وأخبره أن الدكتور نزيه شمس الدين هو الذي تسلم هذا الشاب على مسؤوليته الخاصة بعدما أتم علاجه.

وطبقًا حاول مجدي الوصول للطبيب لكنه متغيب فطلب التواصل مع أي من مساعديه، وبالفعل استدعى له الاستقبال الدكتور ويليام الذي أخبره أن الحالة كانت فاقدة للذاكرة وذلك بسبب إصابة شديدة بالرأس ولكنه على قيد الحياة ويتمتع بصحة جيدة وأن الدكتور نزيه ما عاد يعرف عنه شيئًا بعدما أودعه بمصحة نفسية بحلوان وقيل أنه هرب منها.

أدرك مجدي ألا حاجة له بالدكتور نزيه بعد الآن لذا لم يطلب عنوانه أو رقمه ورحل في حالة يأس وقد قرر أن يقوم بمحاولة أخيرة في الصباح ويتوجه لكلية الفنون الجميلة يسأل عنه زملاءه.

• • •

ظلت مريم جالسةً تنتظر عودة حاتم الذي ذهب يلبي نداء الطبيعة، وهي تعيد تَذّكر ما حدث في

جلستها الأولى الصامتة المطولة مع أنونيم، وكيف أنه جلس يتأملها طويلاً، وتعبيرات وجهه التي رد بها على أسئلتها القليلة.

مريم: أنونيم.

(رد أنونيم بنظرة توحي أنه يفهم معنى الكلمة)

مريم: هل لك أن تخبرني باسمك؟ اكتبه أو ارسمه.

(رد أنونيم بنظرة مبهمة)

مريم: أعلم أنك قد مررت بحدث جلل أفقدك النطق وعلى ما يبدو الذاكرة، لكن حاول أن تساعدني كي أستطيع مساعدتك، قل أي شيء بأي طريقة تحب.

(رد أنونيم بنظرة يائسة)

مريم: أرني ماذا كنت ترسم في النصف الساعة المنصرمة.

(مدت يدها نحوه وبعد تردد منه أعطاها الوريقة، نظرت فيها لتجدها مليئة بالنقوش والطلاسم فلم تفهم شيئًا)

مريم: أنونيم، أنا طبيبتك الخاصة مريم مراد أغا، أنا هنا لمساعدتك فلا داعٍ أبدًا للخوف، وأنت مريض يحتاج إلى علاج، وأول خطوة في سبيل علاجك هو

معرفة من أنت، فهل لك أن تدلني على طريقة لمعرفة ذلك؟

(أمسك أنونيم ورقة وقلم وبدأ يرسم حاتم ومراد ومريم وكتب عبارات الاستنجاد بالتركية، لم تتوقع مريم ولو لواحد في المئة أن مصطفى قد يكون اسمه هو)

عادت مريم من رحلة التذكر تلك في نفس اللحظة التي دخل فيها حاتم مكتبها بعدما أفرغ مكنوناته الداخلية، ليرى تلك اللمعة في عين مريم والتي تعلن عن ظفرها بشيءٍ ما.

مريم: أسرع يا حاتم فقد توصلت لاحتمالٍ ليس بضعيف.

اقترب حاتم بسرعة متسائلاً بحماس: ما هو؟

مريم: أكاد أجزم أن اسمه هو مصطفى، المريض لا يعاني فقدان الذاكرة يا حاتم، بل أغلب الظن أنه يعاني انفصام في الشخصية، يتحدث عن نفسه كأنه شخص آخر يطلب إنقاذه من براثن شيء ما، وكما يبدو من ملامحه ولغته التركية الصحيحة ليس مصريًا بل تركيًا وأظن أنه من خلال براعته في الرسم أنه رسام ومن خلال تقديري الأولي لعمره فهو لا يتعدى الثالثة

والعشرين، ومن هنا يمكنني القول أنه قد يكون ما يزال طالبًا، فإذا سألنا في الكليات التي لها علاقة بالرسم فقد يمكننا الوصول لـ...

يقاطعها حاتم مهدئًا من حماسها قليلاً قائلاً: على رسلك يا مريم ما كل هذه الاحتمالات الضعيفة، أن يكتب التركية بشكل صحيح ليس دليلاً كافيًا على أنه تركي الجنسية، أن تكون ملامحه جذابة وتحمل جينات مختلفة فالكثير من المصريين والجنسيات الأخرى يحملون هذه الجينات، أن يكون بارعًا في الرسم ليس دليلاً على أنه يدرسه أو يشتغل به، وعندك أنا كمثال، محترف تصوير ولست مصورًا، لا يمكننا الانجراف نحو التكهنات ونحن لا نملك الكثير من الوقت.

بالفعل انطفأ حماس مريم واقتنعت للمرة الثانية بتحليله للأمور.

حاتم: انتظري قليلاً وستُحيك الأحداث نفسها.

• • •

وفي مكتب الدكتور مراد كان هناك من سبق الجميع بخطوة، الشاب العشريني الذي لم تتذكره مريم رغم أنها رأته مرتين بجوار مكتبها.

مراد الأغا: أحسنت يا سليم، أنت أفضل محقق عرفته.

سليم: في خدمتك سيد مراد، الملف الذي أمام سيادتك يحتوي على كل المعلومات التي تخص هذا المريض أما عن شاشة المراقبة فكما أمرتني بالضبط.

يخرج مراد من درج مكتبه مظروف يعج بالمال وناوله لسليم الذي تلقفه بعينين لامعتين ثم رحل، استرخى مراد على كرسيه وأشعل سيجارة باهظ الثمن، ثم أخذ يدخنها بشغف وإحساس عميق بالراحة.

عائدًا رغمًا عنه بذاكرته للعام الماضي يوم أن وصلت سيلا بنت رجل الأعمال اللبناني للمصحة وكانت تعاني من انهيار عصبي بسبب وفاة خطيبها الذي كانت تعشقه بشدة، كانت واحدة من الحالات التي تحمست لها مريم ولم تقتنع أنه مجرد انهيار عصبي وأصرت أن الفتاة دخلت مرحلة الفصام ورفض الواقع، أيدها في ذلك حاتم.

وذات ليلة وأثناء إحدى جلسات العلاج باغتت الفتاة الجميع وألقت بنفسها من النافذة فسقطت لتلقى حتفها على الفور.

قال مراد في نفسه: «لم تقتنع مريم وقتها أن

تقييماتها للحالات خاطئة وفي حالة أنونيم ستقحم نفسها في مشكلات عديدة ولابد من التخلص منه وغلق هذا الموضوع تمامًا»

دق أحدهم باب مكتبه فسمح له بالدخول، كانت مدام وفاء رئيسة الممرضات.

د. مراد: هل من جديد يا وفاء؟

وفاء: «ترك بعض الرسومات خلفه ولكنني تخلصت منها» ثم نكست رأسها بنظرة تنم عن الخوف

د. مراد: ماذا؟

وفاء بتلعثم وتردد: إن كنت ستصدقني فهذا المريض ملعون، وحاتم يعلم ذلك جيدًا وما زال ماضيًا في توريطها، أعلم جهودك في تشتيتها لنزع رغبتها في المواصلة، ولكن ما عادت تلك الخطة ناجحة.

اتسعت عينا الدكتور مراد بقوة وبات الشر فيهما مستطيرًا.

• • •

مر الوقت سريعًا واقتربت الساعة من السابعة مساءً، خلع الطبيبان معطفيهما ناصعي البياض وتأهبا لمقابلة الدكتور نزيه في عيادته، وصلا تقريبًا على الموعد

بالضبط، دخلا العيادة وطلبا مقابلة الطبيب الذي وصل قبل خمس دقائق فقط، دخلت السكرتيرة تبلغه أن ثمة ضيفان يودان مقابلته فسمح لهما بالدخول على الفور.

قدم حاتم نفسه أولًا ثم قدم مريم بالنيابة عنها، رحب بهما الطبيب وسمح لهما بالجلوس، روى له حاتم كل شيء وسط اندهاش الدكتور نزيه الذي لم يصدق أن محمود سليمان قد خدعه.

الدكتور نزيه: لم تبدُ أي علامات شديدة السوء على هذا الشاب طيلة الشهر الذي مكثه معي كما يدّعون، ولم يبدُ لي شيطانًا أو ممسوسًا، بل كان شابًا مسكينًا لا يفعل شيئًا سوى النوم وتناول العلاج والقليل من الطعام، ولكنه عانى من الكوابيس وفقدان الذاكرة بسبب التعرض لإصابة شديدة بالرأس نتيجة انهيار منزله وهو بداخله.

حاتم: هل تعرف عنه أي شيء، اسمه أو عنوانه؟

نزيه: نعم عرفت عنوانه من الإسعاف التي أحضرته، أما اسمه فلا، فعندما ذهبت لمنزله لعلني أجد أحدًا من أهله، قال جيرانه أنه انطوائي لم يكن يحادث أحدًا ولم يتعرف إلى أحد.

استأذنته مريم أن يدون لهما العنوان وبالفعل حصلا

عليه ورحلا شاكرين له حسن الاستقبال

• • •

كان حماس مريم زائدًا فطلبت من حاتم التوجه مباشرةً نحو العنوان، ونسيت أنه كان هناك موعدٌ بينهما على العشاء، حاول حاتم أن يلفت نظرها له ولكن حماسها كان زائدًا جدًا.

بالفعل توجه بها حاتم نحو العنوان وما زالت أنقاض المنزل قائمة، سألوا عن قاطن هذا المنزل فقال صاحب كشك السجائر:

- كانوا شخصين، شخص ودود يدعى مجدي وهو طالب في كلية التجارة كان دائم التردد عليّ، وآخر انطوائي لم نتعرف إليه.

شعرت مريم بإحباط كونها لم تحصل على معلومة قيمة بعد كل هذا البحث، فطلبت من حاتم أن يُقِلها للمنزل بعد أن هاجمها صداع شديد، أوصلها لفيلتها بالمنصورية وقبل أن تغادر السيارة قال لها:

- سأمر على المنزل كي أبدل ملابسي ثم سأتوجه لمستشفى الإرادة، سأخبرك بكل شيء فور انتهائي وعودتي، انتبهي لنفسك واعتني بها رجاءً.

أومات مريم المحبطة كليًا بالموافقة وتركت السيارة دون أن تبادل حاتم أي مشاعر من تلك التي كانت تملأ عينيه، ذهبت بلا ابتسامة، بلا توصيات، بلا وداع.

غادر حاتم ودخلت هي فيلتها، صعدت لغرفتها وأغلقت على نفسها الباب، بدلت ملابسها ثم ارتمت على السرير في حالة إنهاك، لم تستطع إغماض عينيها، ظلت محملقة في السقف ترتب الأحداث من أولها لآخرها، تحاول أن تُنحي التشويش والضغوط جانبًا، أن تتحرر من التوتر والتفكير في المدة الزمنية المتاحة وأن تضع تركيزها على الحالة وما توافر من معلومات حولها، ثم عادت للاحتمالات التي قالتها لحاتم في وقت سابق من هذا اليوم، تحادث نفسها قائلة:

- ماذا لو كان اسمه مصطفى وتُركياً ورسامًا أو طالبًا في إحدى الكليات الفنية؟

أخذت تعيد هذه التساؤلات على نفسها حتى باغتها النوم.

ذهبت على الفور في سباتٍ عميق من شدة الإجهاد وقلة الغذاء، ولكنها سرعان ما استيقظت على صوت سقوط أشياء ثقيلة بالقرب من غرفتها، انتفضت من نومتها مذعورة، اقتربت من الباب على حذر، وما إن

وضعت أذنها على الباب تتنصت حتى هدأ الصوت، ثم فجأة ارتطم شيء قوي به من الخارج، صرخت مريم وتراجعت بسرعة وارتعاب شديد، صرخت بهيستريا حتى سمعها والدها الجالس في مكتبه والخادمة ودخلا عليها غرفتها ليجدوها ملقاة على الأرض تصرخ في حالة انهيار.

حاول والدها تهدئتها وطمأنتها أن كل شيء على ما يرام، هدأت بالفعل بعد القليل من الوقت، ثم ساعداها على النهوض لسريرها حتى تستريح، ظل والدها بجوارها يحاول أن يفهم ما حدث، روت له ما سمعته، عقد حاجبيه مستغربًا ومستاءً ثم قال لها:

- أنتِ تجهدين نفسك أكثر مما ينبغي منذ فترة طويلة، حتى تطورت الأمور للهلاوس، نصحتك كثيرًا أن ترتاحي قليلاً من العمل ولكن عنادك منعك وتلك هي النتيجة.

بكت مريم، فضمها والدها إلى صدره وغمرها بحنان لطالما حرمت نفسها منه طيلة الوقت.

• • •

وصل حاتم منذ قليل على مقربة من مستشفى الإرادة ينتظر قدوم عماد الذي لم يتأخر، قال له أن

يترك السيارة ويرتجل معه للبوابة الخلفية، طرق عماد البوابة ففتح له حارسها وكأنهما على اتفاق، تسللا للداخل عن طريق سلالم خلفية خاصة بالعاملين فقط حتى وصلا للطابق الثاني حيث غرفة الحالة ج أو أنونيم القديمة، تلفتا يمينًا ويسارًا وأمام باب الغرفة قال له عماد أن مهمته قد انتهت ها هنا.

قال له حاتم: ألن تدخل معي؟

عماد: لا تؤاخذني أيها الطبيب، فأنا لست مجنونًا لأضحى بنفسي وأدخل تلك الغرفة الملعونة.

حاتم: أي لعنة يا غبي، المريض بشخصه يقبع في مستشفانا وأنت تخشى من غرفة فارغة.

عماد: فالتنعتني بكل ما يحلو لك، لن أغير موقفي، سأنتظرك هنا وإذا اقترب أحد سأحاول تنبيهك.

حاتم: حسنًا يا جبان.

عماد شاكرًا: أشكرك.

دخل حاتم الغرفة وما إن أنار نورها حتى أصابته الصدمة من هول ما رأى، الغرفة بالكامل، حوائطها، سقفها، حتى أرضيتها ممتلئة بالنقوش والرسومات، بدا الأمر خياليًا للغاية ومخيفًا للغاية.

أخرج حاتم كاميرته الفوتوغرافية الصغيرة والتقط صورًا لكل شبر في الغرفة، وقبل أن ينتهي بقليل بدأ يشعر باختناق غريب حتى كاد أن يفقد وعيه لولا أنه تمالك نفسه بأعجوبة، خرج من الغرفة في حالة إعياء مرتميًا على عماد الذي تلقفه بشفقة شديدة، ثم طلب منه حاتم أن يغادرا المكان في الحال، وبالفعل همّا بالرحيل، وفجأة ظهر أمامهما الدكتور محمود سليمان وقبل أن يلحظهما استطاعا الاختباء في إحدى الزوايا، أظهر عماد نفسه أمام الدكتور محمود لصرف نظره وإعطاء فرصة لحاتم كي يهرب، تسلل الأخير من خلفهما في اتجاه السلالم الخلفية ومنها للبوابة ثم لسيارته ثم انطلق بأقصى سرعة مبتعدًا.

• • •

عاد إلى منزله في حالة مضنية من التعب والضغط والإرهاق، ارتمى على سريره بملابسه وحذائه وذهب في سباتٍ عميق في أقل من ثانية.

• • •

استيقظت مريم لتجد نفسها ممددة على سريرها، ألقت نظرة على المنبه الذي لم ينطلق ككل صباح، فوجدت الساعة قد تخطت العاشرة صباحًا، نهضت

على الفور فقد تأخرت كثيرًا جدًا عن موعدها المقدس للعمل، انطلقت بأقصى سرعتها ترتدي ملابسها وفي طريقها للأسفل قابلتها الخادمة قائلةً:

ـ أسعد الله صباحك يا سيدتي، هل أُعد لكِ الإفطار والقهوة؟

مريم: لا، ليس لدي وقت كافٍ، صحيح، أين كنتِ أول البارحة؟

الخادمة: هنا يا سيدتي، لم أغادر المنزل نهائيًا.

مريم باستغراب: كيف ذلك؟ لقد بحثت عنكِ ولم أجدكِ حتى شندي أخبرني أنكِ خرجتِ قبلها بليلة ولم تعودي.

الخادمة باندهاش: مستحيل، أنا لما أُغادر لا ليلًا ولا نهارًا.

وقفت مريم تحاول استيعاب أنها توهمت ما حدث، ولكنها لم تيأس وفي طريقها لسيارتها استدعت شندي وسألته عن الأمر فأنكره هو الآخر، حتى ما حدث لإطارات سيارتها أنكره وشهد بأنها كانت سليمة تمامًا.

اهتزت ثقة مريم في نفسها كثيرًا فلا مصلحة لهؤلاء في إرباكها أو خداعها، وتذكرت ما قاله والدها لحاتم

حول أنها تعاني من الهلاوس السمعية والبصرية وربطت ذلك بما حدث ليلة أمس، ركبت سيارتها وهي تشعر بتحطم داخلي عنيف.

وصلت المستشفى وقطعت المسافة من البوابة وحتى مكتبها دون أن تبتسم أو تُلقي التحية على أحد، دخلت مكتبها وارتمت على كرسيه، أمامها شاشة المراقبة تبث حركات هيستيريا لأنونيم كالتي رأتها بالأمس، وبقليل من الحماس وكثير من الإجهاد رفعت السماعة على ممرضة الدور وطلبت منها أن تعاين وضع الحالة أنونيم، لترد عليها الممرضة أن الأوضاع كلها على ما يرام، وأن المريض هادئ تمامًا ونائم منذ مدة، فطلبت منها مريم أن يقيدوه مجددًا، وبذلك تأكدت أنها من يعاني شيئًا ما.

• • •

وصل مجدي لكلية الفنون الجميلة ودخل يسأل بعض الطلبة من أبناء الفرقة النهائية عن زميلهم مصطفى، فرمقوه بنظرة لم يفهمها تلك التي بين الاستياء والتساؤل، قال أحدهم:

- هل أنت قريبه؟

مجدي: لا، بل شريكه في السكن.

أحدهم: كيف تكون شريكه في السكن ولا تعرف ماذا فعل أو أين ذهب؟

مجدي: في الحقيقة لا أعرف عنه شيئًا منذ عدة أشهر وعندما عدت وجدتُ المنزل منهارًا ولا أثر له.

أحدهم: ولا تعلم أنه قتل زميلتنا ميسرة في شقتها وفر هاربًا ولا يعرف أحد له طريق منذ هذا الحادث؟!

صُعق مجدى صعقة شديدة: ق قتلها؟ ك كيف؟

أحدهم: شَهد حارس العقار أن شابًا بمواصفاته صعد معها لشقتها ثم نزل يركض بعد وقت وجيز وعندما عادت زميلتها في السكن وجدتها مختنقة، والذي أكد عليه التهمة أنه اختفى تمامًا ولم يحضر بعد ذلك.

ذهب مجدي وقد بات إيجاد مصطفى أمرٌ ضروريّ، فهو مجرم هارب من العدالة.

• • •

لم يكن صباح حاتم أفضل حالاً من صباح مريم، وعندما أدرك أن معاد العمل قد فات، قرر أن يذهب مباشرة لمعمل تحميض الصور الذي يملكه صديقه نفيس، أعطاه فيلم الكاميرا وانتظر ساعة حتى سلمه الصور.

أخذ حاتم الصور وجلس في سيارته يتأملها، وكلما تعمق فيها أكثر كلما شعر بالانقباض والكآبة أكثر، أخذ الصور وانطلق في اتجاه المستشفى.

• • •

كانت المرة الأولى التي تلجأ فيها مريم للمهدئات، لعلها أيضًا على وشك أن تُسلم لحقيقة أنها باتت مريضة نفسية، دخل عليها حاتم في حالة مزرية نوعًا ما يحمل مظروف الصور، ورأى في يدها شريط الأقراص المهدئة، لم يُعقب ولم يتعجب فقط جلس منهكًا على الكرسي طالبًا منها أن تناوله قرصين من هذا البرتقالي اللون.

مريم بنبرة شاحبة كوجهها: يبدو أن الدكتور مراد مُحقٌ فيما يقول يا حاتم.

حاتم بإجهاد: كيف؟

مريم: بشأن التهيؤات.

حاتم: لا تتوهمي أكثر مما ينبغي يا مريم فأنا أثق بقواكِ العقلية، أنا كطبيب لن أُشخص حالتك بأكثر من مجرد إجهاد ذهني.

تتنهد مريم تحاول تخطي الأمر مؤقتًا لحين الانتهاء

من هذا التحدي: ماذا لديك من ليلة البارحة؟

أعطاها المظروف، وأخذت تتأمل الصور بعمق، لاحظت تكرار نفس رسومات الوريقات التي لديها، نفس الفتاة الموشومة بالأفعى وتلك المرأة الفرعونية والرجاء في إنقاذ هذا المصطفى بالعبارات التركية، والنقوشات الفرعونية، وحفرة نار تجمع حولها رجل وامرأتين أمام ساحر دميم.

مريم متنهدة بيأس: لا جديد، نفس الرسومات ولكنها مكررة.

حاتم: بالضبط، هذا ما يدفعنا نحو التصديق بوجود لعنة ما في الأمر.

مريم متأففة: ليس مجددًا يا حاتم، سبق وأن تناقشنا في هذا الأمر.

يقاطعها حاتم قائلاً: أنتِ لم تفهميني جيدًا، أنا أحاول أن أفكر من وجهة نظر الحالة، إذا كان يعتقد أنه تحت تأثير لعنة ما، فلابد من اكتشاف تلك اللعنة للوصول منها إلى لُب المشكلة ومن ثمَ تحديد ماهية مرضه بناءً على ما يعتقده.

نظرت له مريم بإعجاب شديد: أصبت.

ثم استكملت: وبناءً على ما قُلت؛ ماذا علينا أن نفعل من وجهة نظرك؟

حاتم: يُسعدني أنكِ اقتنعتِ، أنا أعرف شخص يمكنه مساعدتنا في أمر اللعنات والأساطير وتلك الأشياء وسأذهب لمقابلته غدًا في موعد بث برنامجه المباشر.

مريم: من يا ترى؟

حاتم: الدكتور في علم ما وراء الطبيعة، نجم الدين السيوطي.

• • •

لم يُضيع مجدي الوقت سدىً، عاد في الصباح الباكر لمستشفى الهرم حيث الدكتور ويليام، يسأله عن عنوان الدكتور نزيه، ولكن لحسن حظه أن الدكتور نزيه بنفسه موجود، كل ما أراده هو عنوان المصحة التي مكث فيها في حلوان، ولكن الطبيب أعطاه ما هو أفضل، عنوان المستشفى التي يتواجد فيها حاليًا «دار النور»

• • •

ذهبت مريم برفقة حاتم للمرور على بعض الحالات كالمعتاد وبينما هما في الطريق لمكتبها لاحظت مريم شابًا أسمر يقف على الباب، عرّف نفسه أنه مجدي

صديق مصطفى المريض الجديد عندهم، كانت مفاجأة عظيمة لمريم التي عادت تثق في قدراتها من جديد وأشرق وجهها الذي كساه الإحباط وخيبات الأمل المتتالية.

جلسوا جميعًا في مكتبها وأخذ يروي لهما مجدي كل شيء من البداية، بدءا من وفاة والدة مصطفى ميراز التي كان يعشقها وكان رافضًا لفكرة التسليم بموتها، وصولاً لكتاب لعنة أبيب الذي عكف عليه لمدة طويلة وحتى مقتل ميسرة واتهامه بقتلها وأنه الآن مجرم هارب من العدالة.

سأله حاتم: ما الذي جعلك تهجره؟

مجدي: لم أهجره بل ذهبت لزيارة أهلي في محافظة الأقصر، وما إن وصلت حتى صدمتني سيارة، وأُصبت بكسور متفرقة جعلتني طريح الفراش لعدة أشهر.

مريم: وأين هذا الكتاب الذي ذكرته؟.

مجدي: لا أدري فقد انهار العقار وفُقد كل شيء.

حاتم: وتلك التي تدعى ميسرة ما كانت علاقتهما وكيف تعرفا؟

مجدي: أخبروني أنها كانت زميلته في الكلية ولا أعلم شيئًا عن علاقتهما فمصطفى لا يتحدث كثيرًا.

شرد مجدي للحظات كأنه تذكر للتو شيئًا:

- لعلني رأيتها ذات مرة بالفعل، حينما كنت في الأهرامات أمتطي الخيل مع رفقاء الجامعة، كان مصطفى كالعادة هناك يرسم وكان معه فتاة.

مريم: هل لك أن تصف شكلها؟

يحاول مجدي أن يتذكر جيدًا:

- لا أتذكر منها الكثير سوى شيءٌ واحد مميز، وشم الأفعى على ذراعها.

وعلى الفور أخرجت مريم الوريقات التي رسمها والتي رسم فيها فتاةً موشومة وأرتها لمجدي: هل تشبهها؟

نظر مجدي بتفحص ثم قال: نعم، كثيرًا.

• • •

حاول حاتم السيطرة على حماس مريم المبالغ فيه ولكنه فشل، فقد أصرت على مواجهة مصطفى بما عرفته عنه للتو، لعل ذلك من وجهة نظرها يُحدث له انتعاشة في الذاكرة، على عكس رأي حاتم.

حاتم: لا أراها فكرة صائبة أبدًا، فإن كان الأمر كما تصورنا وللعنات دخل في ذلك فقد لا يُجدي معه أسلوب المواجهة، خاصةً ونحن ما زلنا لا نعلم أي شيءٍ عن طبيعة أو مضمون تلك اللعنة.

مريم: ولعله العكس وحينما يتوحد المريض مع شخصيته يبدأ في استعادة المزيد رويدًا.

وصلا للطابق الثالث، ودخلا الغرفة فقد بدا المريض على شاشات المراقبة هادئًا، ولكنهما وجداه عكس ذلك، ولولا أنه مُقيد ما استطاعا الخروج أبدًا.

رغم ذلك لم تتمالك مريم نفسها كأن اليومين المنصرمين بكل ما شمِلهما من إرهاق مستحدث قد أذهبا عقلها تمامًا، صرخت فيه باسمه:

- مصطفى، مصطفى، أفِق.

حاول حاتم تهدأتها ولكنه فشل، بينما تمادت هي في سرد الحقائق:

- اسمك مصطفى وتدرس في كلية الفنون الجميلة، قتلت ميسرة، ميسرة زميلتك التي أحبتك، قتلتها وهربت.

كان مصطفى يستشيط غضبًا أكثر وأكثر كلما أزادت،

ورغم ذلك لم تتوقف وأكملت:

ـ أنت موهوم بوجود لعنة ما، قل لي ما هي تلك اللعنة، أي لعنة لعينة تلك التي سيطرت عليك حتى أصبحت قاتلاً؟

تملكت المريض رجفة قوية كالذي أصيب بالصرع، كأنما صاعقة كهربائية أصابته ولم تهدأ إلا وهو فاقدٌ للوعي في حالة يرثى لها.

ألقى حاتم عليها باللوم قائلاً:

ـ هل نلتِ مرادك الآن؟ أهذا ما كنتِ تسعين إليه.

وخرج من الغرفة غاضبًا، حاولت مريم استيقافه وتبرير ما حدث ولكنه قد استنفذ كامل طاقته وصبره للدرجة التي جعلته يترك المستشفى كلها ويرحل.

• • •

لم يحدد حاتم وجهته فقط انطلق بالسيارة نحو اللاشيء، ليجد نفسه بلا تخطيط أو تفكير متجهًا نحو منزل أنونيم أو مصطفى المنهار، ساقه الفضول للسير فوق أنقاضه، ثم جلس في حالة اختناق فوق كومة التراب يفكر بمريم وما فعلته وما قد تؤول إليه الأمور.

ثم ذكّرته الرمال بطفولته، عندما كان يلعب مع

أطفال الحي في الرمال، يعجنونه بالماء ويبنون به القلاع والقصور، ابتسم قليلاً حينما تذكر أيضًا ابنة الجيران «عفاف» حبه الأول، كانت زميلته في المدرسة وفي نفس الفصل، ثم ابتسم ابتسامة واسعة حينما تذكر السبب الذي كرهها من أجله، الفاشلة حصلت على خمس درجات من عشرة بينما حصل هو على الدرجة النهائية فسقطت المسكينة من نظره للأبد.

ثم دخل كلية الطب بناءً على رغبة والده رحمه الله، ثم تخصص في الطب النفسي بناءً على رغبة والدته رحمها الله، نعم، رحمهما الله وظل هو يعاني من اختيارات المرحومين، و لم يرحمه أحد.

أسند حاتم يده خلف ظهره ومد قدميه كأنه جالسٌ على شاطئ العشاق وليس أعلى قمة منزل منهار تفوح منه رائحة اللعنة والدمار، ثم شعر بشيء ورقي أسفل أصابعه، كأنما دفتر أو كتاب، نبش قليلاً حوله وأخرجه، إنه هو كتاب لعنة أبيب، اللعنة التي يُشير إليها أنونيم دائمًا.

انفرجت أساريره قائلاً في نفسه: «أقسم لو أنني كنت راقصة لما كان سيبتسم لي الحظ هكذا»

• • •

أخذ الكتاب عائدًا لمنزله منتشيًا، دخل المطبخ وقام بتحضير كوبٍ كبير من القهوة، ثم شرع في قراءته بتأنٍ.

توقف عند الكثير من النقاط في ذلك الكتاب، وأخذ يرسم الدوائر ويضع الخطوط، دق جرس الهاتف أكثر من مرة قبل أن يفصل السلك عنه وتنقطع الحرارة، قضى معظم اليوم في القراءة المتعمقة والتفحيص في التفاصيل، بل وإعادة بعض الأجزاء.

دق جرس باب شقته، تعجب حاتم فلم يزره أحد منذ وقت طويل، كان مترددًا في الاستجابة للطارق مُدعيًا عدم التواجد، لكن الزائر الغريب كان مصرًا أكثر من اللازم، وقد كانت المفاجأة التي لم يتوقعها مهما تخيلها.

- مريم؟

مريم: لا أعلم كم مرة يجب عليّ أن أعتذر لك فيها؟

حاتم: لا بأس، فقدومك الأسطوري لمنزلي كفيل بتسديد كافة فواتير الأسف لآخر العمر.

اصطحبها للداخل واستقبلها في الصالون، عارضًا عليها مشاركته فنجان قهوة جديد، وافقت على الفور وأثناء تحضيره القهوة لحقت به نحو المطبخ، كانت

على ما يبدو تريد البوح بشيء ما.

لم ينتبه حاتم لوجودها خلفه في البداية.

حاتم: لماذا تتعبين نفسك بالوقوف هكذا؟

مريم: ومن قال أنني قد أكون متعبة وأنا أنظر إليك؟ أنت أثمن شيء لدي يا حاتم ومستعدة لتحمل أي متاعب من أجلك.

كانت تلك كلمات ذات وقع على قلبه بالتأكيد، ولكنه لم يهتم كثيرًا فهو معتاد على مجاملات مريم.

فرد مداعبًا: سأغتر هكذا.

مريم: «يحق لك» وقع نظر مريم على الطاولة الخشبية بجوارها حيث كتاب لعنة أبيب.

مريم باستغراب: ما هذا؟

يناولها حاتم فنجانها قائلاً: تفضلي بالجلوس، أما عن هذا فهو كما موضح من عنوانه، كتاب لعنة أبيب، وجدته مدفونًا فوق أنقاض منزل أنونيم.

مريم: هل عدت هناك؟

حاتم: نعم.

تنظر للكتاب بسخف متسائلة.

مريم: وما هي لعنة أبيب تلك إذًا؟

قضى حاتم قرابة النصف الساعة يحاول تلخيص مضمون الكتاب قدر المستطاع لمريم التي كانت تنصت بتركيز شديد، تفند وتستنتج وتحاول الوصول لتوصيف مبدئي لحالة أنونيم.

مريم: وماذا يعتقد مصطفى من وجهة نظرك، أنه ميت يريد العودة في جسد جديد؟ أم جسد ينتظر روحًا قديمة؟

حاتم: طبقًا لرسوماته، ومناشدته لنا لإنقاذ مصطفى، فهو يعتقد نفسه ميتًا يريد العودة، ولكن في جسده لا جسد جديد.

اتسعت عينا مريم قائلةً: تقصد، متلازمة كوتار؟

(متلازمة كوتار، أو متلازمة الجثة السائرة أو وهم الموت: مرض يبدأ بالاكتئاب وينتهي باعتقاد المريض بأنه جثة متحركة أو زومبي، وهو اضطراب نفسي نادر ويتوهم فيه المريض أنه قد مات ويتصرف على هذا الأساس باقتناع شديد، ومن أهم الأسباب التي قد تؤدي للإصابة بهذي المتلازمة تعرض المريض لحادث أليم ومروع ينجو منه بصعوبة شديدة، وتزداد النتائج سوءًا مع الأشخاص الذين يعانون مآسٍ خاصة قبل

الحادث كفقدان شخص عزيز)

حاتم بنبرة آسفة: للأسف هذا هو الاستنتاج الوحيد.

مريم: يعني أنه بات مقتنعًا أنه ميت وأنه مجرد جسد سائر على الأرض بلا روح ولا وعي، أكمل، أكمل ما تقوله تلك اللعنة.

حاتم: تقول أنه للتخلص منها لابد من تقديم القرابين، وأول قربان الفتاة الموشومة برمز الأفعى.

مريم بصدمة: ألهذا قتل رفيقته التي تدعى ميسرة؟

حاتم: نعم بالضبط، ظنًا منه بشكل لا إرادي أنه يحصد القرابين وهي أولهم، ثم رجل موصوم في خده بوصمة غضب أبيب، ثم المرأة صاحبة عيون الجن.

مريم: يا للهول هل سيحتاج المزيد من القتلى ليشفى من لعنته؟

حاتم: لو أن هذا أول الخيط في علاج الحالة، فهي حالة لن ترى شفاءً ما حيَت.

مريم: كيف سنتحايل على تلك الورطة؟ لم يعد أمامنا من المهلة سوى ثلاثة أيام، إن لم نتخط المرحلة الأصعب والمريض بين أيدينا، فسيطردنا مراد الأغا وتذهب الحالة لمصحة أخرى.

حاتم: يبدو الأمر معقدًا نوعًا ما ولكن لا تفقدي الأمل، أقل من ساعتين وسنعرف بالضبط الحل، سأذهب لمقابلة الدكتور نجم الدين السيوطي وأنا واثق من أنه سيدلنا على الطريقة المثلى لإقناع أنونيم أنه تخلص من تلك اللعنة في خطوات بسيطة.

وفور انتهائهما من قهوتيهما الثالثة على التوالي قررت مريم مرافقة حاتم لمقابلة نجم الدين السيوطي.

• • •

أما عن أنونيم فقد اختفى من الغرفة، بل والمستشفى كلها، حاولت الممرضة الاتصال بحاتم ولكن بلا جدوى، كما حاولت الوصول لمريم، فأخبرتها الخادمة أنها لم تعد حتى الآن.

• • •

بدا الدكتور نجم الدين السيوطي أكبر سنًا بكثير من صوته في الإذاعة حتى أنه يكاد لا يرى بوضوح، استقبل الطبيبان بتواضع شديد.

شرح له حاتم على مدار ساعة كاملة القصة بأكملها في مقابل الصمت التام من الدكتور الكبير، وبعدما انتهى من السرد خيم الصمت البارد على الجميع، وبعد لحظات قال الدكتور نجم الدين:

- ما الذي يجعلكما على تمام اليقين أنه بالفعل مرضٌ نفسيّ وليست لعنة حقيقية؟

ردت مريم: لأن العلم أثبت وجود المرض وأعراضه وعلاجه ولم يثبت وجود اللعنات فهي مجرد أساطير، جميعنا يعلم ذلك.

نجم الدين السيوطي: وما تفسيرك أيتها الطبيبة لكثير من الحوادث والظواهر التي لم يستطع العلم تفسيرها حتى الآن؟

مريم: ليس معنى أن العلم لم يفسرها حتى الآن أن تكون حدثت بسبب جن أو لعنة، بل يعني أننا لم نتوصل بعد للعلم الكافي الذي يمكنه تفسير مثل هذه الظواهر.

نجم الدين السيوطي: أو أن هناك عالم معنوي يوازي العالم المادي الذي نعيش فيه، ويعكس ببعض من ظلاله عليه مسببًا طفرات غير منطقية من وجهة نظر العلماء ولكنها حقيقة غير مُثبتة لأنها لا تقاس بالمعايير المادية المتعارف عليها، لذلك عجزك عن إدراك ما هو معنوي بحواسك المحدودة التي تقيس فقط كل ما هو مادي ليس بإثبات كافٍ على عدم وجوده.

لم يشأ حاتم أن يدخلا معًا في مناقشة من شأنها

تضييع الوقت في محاولة إثبات كل منهما وجهة نظره للآخر والدخول في صراع بين تجليات الروح ومطرقة العلم، فقاطعهما قائلاً:

- دكتور نجم الدين، نحن في هذه الحالة نحاول مساعدتها بما لدينا من علم، لذلك جئنا نستشيرك في هذا الأمر، كيف نقنعه بأن ما هو عليه مجرد حالة مرضية وليست لعنة، فحتى وإن كانت تلك اللعنات حقيقية الوجود فهي لا تحدث هكذا ببساطة.

نجم الدين: ليس هناك سوى حل واحد، تقديم القرابين.

حاتم: كيف؟ أستتركه يقتل ليشفى؟

نجم الدين: بما أنكما على يقين تام بأنه مرض، قوموا بخداعه، قدموا له القرابين واقتلوهم من أجله، فلو كان حقًا مريض فسيقتنع (بنبرة بطيئة مخيفة) أما إذا كانت لعنة فلن ينجو منها أحد.

ارتابت مريم كثيرًا وتملك الخوف قلبها رغم أنها لم تقتنع بحرف واحد مما قال، شكراه على كل حال ورحلا صامتين طيلة الطريق، أوصلها حاتم لباب فيلتها مودعًا بكلمتين: «تصبحين على خير» ثم رحل.

• • •

وما إن وصل حاتم لشقته حتى وجد الدكتور نابر ينتظره على الباب، اندهش حاتم كثيرًا قائلاً:

ـ دكتور نابر؟ ما الأمر؟

نابر بخزي: مصيبة، الحالة أنونيم اختفت.

صُعق حاتم ووقف متسمرًا دون أي رد فعل.

دخلا الشقة وأعاد وصلة الهاتف، اتصل بمريم على الفور، والتي لم تصدق ما سمعت وطارت نحو المستشفى تتأكد بنفسها من تلك الكارثة.

• • •

بالفعل وصلا للمستشفى وتأكدا من اختفاء الحالة، أمرت مريم الحراس والأمن بمراجعة شرائط المراقبة للساعات الأخيرة وإبلاغ الشرطة، ثم هرعت لمكتبها تعيد ما سجلته شاشة المراقبة خاصتها، وكان العجب أن تم محو كل شيء ولا أثر لأي دقيقة مُسجلة.

وقفت مريم تائهة مشتتة منهارة لا تدرِ ماذا عليها أن تفعل أمام تلك المصيبة، فأنونيم ليس مجرد مريض نفسي بل قاتل مسلوب العقل يبحث عن قرابين بشرية لاسترداد روحه وهي المسؤولة عنه قانونيًا.

وحينما رآها حاتم قد وصلت لنهاية المطاف وبدأت في الاستسلام للانهيار الكامل ضمها لصدره، ضمها بقوة وقال:

- أنا أثق بكِ يا مريم، سنعبر تلك المحنة سويًا، وسننجح، فقط اهدئي وسنجد الحل، فأنا لن أستطع المضي قدمًا بدونك، بدون نصفي الثاني.

كالعادة هو السند، هو الوحيد الواثق في قدراتها وقدرتها، هو الرفيق المخلص، هو القريب، هو الحبيب.

أغمضت عينيها وتنفست بعمق، وهنا تذكرت الغرفة السرية بمكتب أبيها والتي تضم كل شاشات المراقبة الداخلية والخارجية وممنوع على كائن من كان دخولها أو الاقتراب منها.

• • •

دخلا الغرفة خلسةً من الجميع المنشغل في البحث عن الحالة الخطرة الهاربة، كانت تعلم أن خلف هذا التابلوه الذي يجسد أبيها بالحجم الطبيعي يوجد مدخل الغرفة السرية، أزاحا التابلوه، ليجدا مرآة عاكسة وهمية، هذه المرآة ما هي إلا باب الغرفة ولكنها لا تُفتح بمفتاح ولا رقم سري بل ببصمة الصوت، شعر حاتم بخيبة أمل كبيرة، لكن مريم باتت لا تنتظر خيبات

الأمل بل تصنعها، وبدون تفكير وقبل أن يلحق بها حاتم، رفعت أحد كراسي المكتب وهوت به على المرآة فتصدعت قليلاً، ألقت الكرسي الثاني فتصدعت أكثر ثم هوت عليها بكراسي طاولة الاجتماعات كلها، ولم يتركها حاتم بمفردها في هذا الأمر.

لم يتركا شيئًا في غرفة المكتب إلا صار حطامًا، دخلا الغرفة أخيرًا بعدما هشما المرآة بالكامل، كان المكان أشبه بمغارة، كانت غرفة شديدة الاتساع تحوي المزيد من الغرف بداخلها.

وجدت مريم شاشات المراقبة العملاقة، هي الوحيدة التي ما زالت تعمل رغم تعطل كافة الشاشات في الخارج، ساقها الفضول لفتح الغرف الداخلية والاطلاع على ما فيها.

فتحت أول غرفة فوجدت فيها غرفة نوم صغيرة غالية، تجولت فيها قليلاً، حدثها حدسها أن تفتش الدولاب، وجدت ملابس لأبيها وأخرى نسائية، كل الألوان والمقاسات، ثم في قاع الدولاب لاحظت وجود خزينة، لم تكن مغلقة لحسن الحظ وبها ملف، فتحت الملف لتجده يتحدث عن الحالة أنونيم، كل ما يخصه، كل المعلومات التي حصلوا عليها وأكثر، استطاع والدها أن يعرف كل شيء عن مصطفى وحتى عن

أخيه يحيى وتاريخ عائلته، وأخفى كل ذلك.

دخل حاتم عليها مخبرًا إياها بصدمة أخرى في أبيها، فهو يملك هنا وحدة للتحكم في كافة شاشات المراقبة، بما فيهم شاشة المراقبة خاصتها، ويستطيع من خلالها تقديم وتأخير وقطع البث بل وعمل مونتاج له أيضًا، فيقطع الساعات التي يريدها ثم يعيد الإرسال المباشر مرة أخرى.

هنا فطنت مريم للخدعة وأدركت أن حدسها لم يخطئ أبدًا، وأن مرضها بالشك منحة وليس محنة، ولم تستبعد احتمال أن والدها تآمر مع الخادمة والجنايني في نسج أحداث وهمية كي يقنعها أنها مريضة نفسية يجب عليها الابتعاد عن العمل كي ترتاح، بل أراد أن يُقصيها كي لا تنافسه على كرسي الإدارة اللعين.

لعلها في تلك اللحظة باتت مؤمنة باللعنات.

أخذت الملف وفي طريق خروجهما من الغرفة سمعا صوت أنّات من غرفة بعيدة، توجها نحوها بلا تردد، لتظهر المفاجأة الأكبر، أنونيم.

كان أنونيم حبيس تلك الزنزانة الفخمة مقيدًا في سرير طبي مُجهز، وبات كل شيء واضحًا بما لا يدع مجالاً للكذب.

وبينما هما يقفان متسمران لم يدركا بعد أن ما أمامهما حقيقي، شعرت مريم بالدكتور مراد يقف خلفهما بصحبة هذا الشاب مألوف الوجه يحمل سلاحًا يصوبه نحوهما.

قال مراد أغا بنبرة أسف: يا للخسارة، لم أتوقع يومًا ما أن تتواطأ ابنتي الوحيدة بمشاركة رجلي الأول وذراعي الأيمن في اقتحام ممتلكاتي وسرقتي.

ردت مريم باحتقار شديد: كما لم أتوقع أنا أيضًا أن أبي الذي ظننته طبيب محترم ما هو إلا أفاق، غشاش، مريض.

ضحك مراد ضحكة غاضبة ثم قال بحدة:

- تعتبرين خوفي عليكِ مرض؟ أنتِ تلعبين بالنار التي لن تحرق غيرك، أنا هنا لحمايتك من نفسك ومن هذا الذي بجوارك وقد ظننتُه سيمنعك من توريط نفسك (ثم صرخ) هذا الراقد خلفكما ملعون وهو يعلم ذلك (نظر بكراهية لحاتم قائلاً) لقد خنت ثقتي فيك (ثم صرخ في سليم حارسه الخاص الجديد) سليم اقتل هذا المريض على الفور.

ثم غادر مراد الأغا المكان وهمّ سليم بتصويب

سلاحه نحو رأس المريض إلا أن حاتم هجم عليه وقاومه، كانت مقاومة شرسة لم ينتصر فيها حاتم في النهاية، تمكن منه سليم مطلقًا عليه النار، فأصاب كتفه وسقط حاتم على الأرض غارقًا في دمائه، تمامًا كما رسمه أنونيم في الوريقات.

في نفس الأثناء هجم على المكان عدد كبير من أفراد الشرطة وقبضت على سليم ومن قبله الدكتور مراد، واعترف سليم في الحال على الدكتور مراد فقبض عليهما.

دخل الأطباء والممرضون لإسعاف الدكتور حاتم، وآخرون ينقلون الحالة أنونيم لغرفته ليتمكنوا من السيطرة عليه بشكل أفضل.

تم نقل الدكتور حاتم لمبنى العمليات، وقد أصبحت حالته حرجة فقد تسببت الرصاصة في قطع شريان رئيسي يغذي المخ وبات الأمل في إنقاذه ضعيف.

أما مريم فكأنما شق أحدهم قلبها نصفين، نصف على حاتم، الحبيب الذي طالما تحملها في قسوتها وغضبها، في بُعدها وجفائها، عشقها بكل ما فيها من عيوب صابرًا ومحتسبًا.

ونصف على أبيها الذي سيُلقى حبيسًا إما في زنزانة

أو في غرفة بالمصحة.

• • •

بعد انتظار أكثر من ست ساعات مريرة، خرج الجراحون من غرفة العمليات ليطمئنوها أنه بخير ويمكنها أن تراه بعد أن يسترد وعيه، ثم نقلوه لغرفة العناية المركزة.

وما إن تركوه وخرجوا حتى تسللت مريم لغرفته، اقتربت منه بهدوء، تأملته، أمسكت بيده الباردة، لم تستطع حبس دموعها، فبكت.

- حاتم، أعلم أنك لا تسمعني، ولكن لا يسعني الانتظار أكثر من ذلك كي أعترف لك أنني... أحبك، نعم أحبك بقوة، أحبك منذ زمن وانتظرت سماعها منك ولكن لم تقلها، لم يكن عندي مانع أن أقولها لك أولاً ولكني خشيت على كرامتي وكبريائي، أردت أن أحظى بها ككل الفتيات لأشعر بفخري الأنثوي، وآثرت الصمت طيلة هذه السنوات.

ثم غلبها البكاء الحار، ثم شعرت بأصابعه تضم أصابعها قائلاً بضعف: ما هذا الغباء؟

ابتسمت قائلةً له وهي ما زالت تبكي: ماذا؟

قال: «أنا أحبك، قلتها قبلك بأفعالي» ثم غاب عن الوعي مرة أخرى.

ضحكت باكيةً وقبلت يده وجبينه وتركته يرتاح.

• • •

بعد مرور شهرين

استقبلت المستشفى عودة الدكتور حاتم سالمًا معافىً بالورود، وكانت مريم على رأس المستقبلين، اصطحبته لمكتبها الجديد، مكتب المدير، وأخذت تروي له كل ما فاته بشأن أنونيم أو مصطفى وكيف أن الجلسات التأهيلية أتت بثمارها، واستعرضت نتائج العلاج بعدما أُزيح الضغط والتوتر من على عاتقها.

مريم: وأخيرًا نطق مصطفى، ولكنه ما زال مقتنعًا بأنه ملعون وأن روحه محتجزة في سماء أبيب ولابد من تقديم القرابين لتتحرر وتعود لجسده

حاتم: لا تحملي همًا، سنقدم القرابين.

• • •

بعد أسبوع

أمر حاتم بنقل المريض أنونيم مُخدرًا للملعب الخلفي بعدما تم تجريفه وفرشوا أرضه بكميات هائلة من الرمال الصفراء ونصبوا خيمة كبيرة جدًا في منتصفه.

كما اتفق مع ممثلين لأداء أدوار خاصة، دور الملكة مريت إت أس، والساحر المطموس ورجل موصوم في خده بفضل المكياج السينمائي، وامرأة زرقاء العيون.

ثم أمرهم بإفاقة المريض بعد تمديده على الأرض أمام حفرة النار والحفاظ عليه مقيد اليدين والقدمين، ومراقبة الأمر بالكاميرات من الداخل والشاشات من الخارج.

وبالفعل بدأت الطقوس، ورُتلت التعاويذ، وأوهموه أنهم ذبحوا القرابين، وتوسلوا لأبيب استعادة الروح، بدأ المريض في التشنج مطلقًا الصراخات، كأن شيطانًا مريدًا ينسل منه، ظل على تلك الحالة طيلة مدة تلاوة صلوات استعادة الروح، حتى هدأ عند انتهاء الطقوس تمامًا فاقدًا الوعي.

• • •

استفاق مصطفى من نومته كأنما ولد من جديد، بعدما ظن أنما أُزيحت عنه غمة عظيمة، تحدث بشكل طبيعي وكلمات مفهومة، معلنًا بذلك نجاح الخطة، ولكنه لم يشفَ بالكامل فهو ما زال في طور العلاج الذي سيحتاج أشهر إضافية ليعود إنسانًا طبيعيًا يمكنه الاندماج مجددًا في الحياة ويمضي قدمًا نحو مستقبل مشرق.

• • •

وبهذه المناسبة السعيدة ذهب حاتم ومريم لقضاء أمسية لطيفة بمكانهما المفضل المعتاد.

حاتم: وها قد انتصرتِ، وأثبتِ أنك طبيبة مهارة وقادرة على صنع المستحيلات.

مريم: بل أثبتنا يا حاتم، أثبتنا سويًا أننا قادران.

نظر حاتم في عينيها العسليتين بهيامٍ شديد قائلاً:

- أتتزوجينني؟

احمرَّ وجه فتاتنا خجلاً وهربت من على شفتيها الكلمات، فرفع حاتم الحرج عنها قائلاً:

- السكوت علامة الرضا، إذًا كتب الكتاب الخميس القادم أليس اليوم هو الثلاثاء؟

ضحكت مريم كثيرًا، وقضوا أمسيتهما يحلمان بكل ما هو جميل، وقد اتفقا أن يجمع شملهما بيت أخيرًا بعد كل هذا الانتظار الطويل.

• • •

وفي نهاية الأمسية الشاعرية والتي لم تخلُ من المزاح، أعادها حاتم لفيلتها وودعها مقبلاً يدها برومانسية شديدة ثم قال ممزاحًا.

حاتم: أراكِ غدًا يا أميرتي المتوجة حنوت.

مريم: أراك على خير سيدي خوفو المعظم.

ثم غادرت السيارة بخفة ودلال، ودخلت فيلتها بطاقة هائلة من الحب والسعادة والإيجابية تملأ المكان، أخذت حمامًا دافئًا وجلست أمام المرآة تستعرض الوشم الجديد الذي وشمته على ذراعها لأفعى سوداء كبيرة، تخليدًا لذكرى حالة أنونيم.

وبينما هي تتباهى بنفسها، أطاحت بقارورة العطر المميز والثمين خاصتها وكادت أن تصطدم بالأرض وتتحطم لولا أنها استطاعت التقاطها بسرعة، ثم رفعت عينيها في المرآة لتجد خلفها مباشرةً أفعى سوداء عظيمة، ثم أظلم كل شيء.

تمت

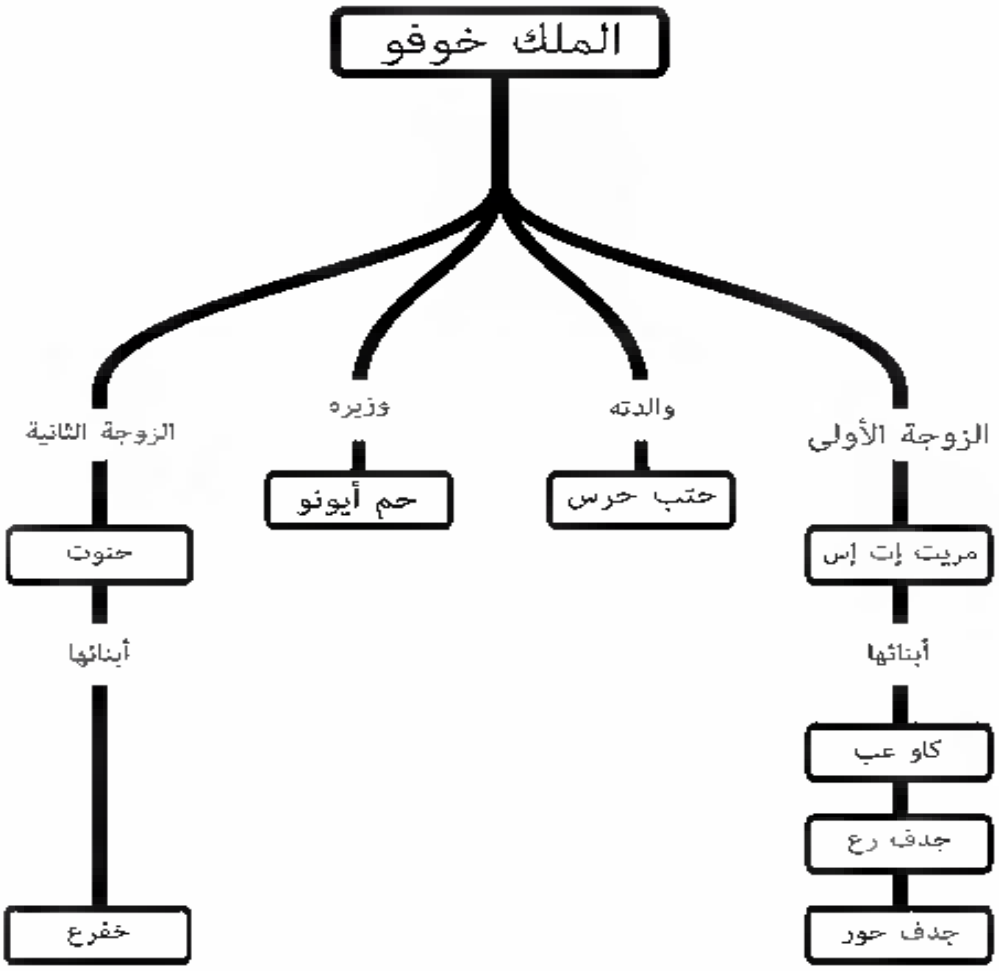
الملك خوفو
الزوجة الأولى
والدته
وزيره
الزوجة الثانية
مريت إت إس
حتب حرس
حم أيونو
حنوت
أبنائها
أبنائها
كاو عب
جدف رع
جدف حور
خفرع

الفقرة التشويقية

(من جزم بأن البرزخ في السماء وأن الروح تفارق الجسد بالموت؟ هي فقط تنفصل عنه لكن لا تتركه، تظل مرتبطةً به حتى وإن أضحى ترابًا منثور الذرات في البحر أو في البر أو حتى في الفضاء، تسبح الروح بين حباته ليوم الجمع، ما أخلص الروح للجسد!)